رحلة الغربة

بسم الله الرحمن الرحيم

رِحْلَةُ الغُرْبَةِ

GURBET YOLCUSU

عريف أكبنار

HİKÂYE

دَارُ المَكْتَبِيّ

الطبعة الأولى
2017 - 1438

رِحْلَةُ الغُرْبَةِ

GURBET YOLCUSU

عريف اكبنار
HİKÂYE

ترجمة: مرغريت خلوف
مراجعة وتحرير: مركز التعريب والبرمجة
بإشراف الدكتور غياث المكتبي – شيم حقوق

قامت دار المكتبي – براعم المكتبي بترجمة هذا الكتاب الصادر
عن دار: ALTIN BURC

تمت ترجمة هذا الكتاب
بمساعدة صندوق معرض منحة الشارقة الدولي للكتاب للترجمة

جميع الحقوق محفوظة

دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف :00963112248433 فاكس : 00963112248432 ص.ب : 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس : 0097165512264 ص.ب : 3309
Email almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

شَجَرةُ الصَّنَوبرِ وَأَقْلامُ التَّلْوِينِ

كانَ كلُّ شيءٍ في طفولتي في غايةِ الجمالِ، وبالأخصِّ شجرةُ الصَّنوبرِ التي جعلتْ من واجهةِ مدرسِتنا شبيهةً بقصورِ الأغنياءِ، ذات الطَّوابقِ الخشبيَّةِ، كنتُ أحبُّ أشجارَ الصَّنوبرِ الموجودةِ في مدرستنا كثيراً، كنتُ أحضنُ جذعَ الشَّجرةِ كاللبلابِ من وقتٍ لآخر وأشعرُ بقلبي في حضنِها، لماذا أحبُّها بهذا القدرِ؟ أنا نفسي لا أعرفُ!

كلُّ الأشجارِ في الجوارِ تتساقطُ أوراقُها عندَ قدومِ الخريفِ إلا هذهِ الشَّجرة تبقَى خضراءَ دوماً، هل هذا من طبيعتِها يا ترى؟!

آه هذهِ الصورة!

في آخرِ هذا الطَّريقِ الصَّخريِّ الموجودِ وسط حديقةٍ مليئةٍ بأشجارِ الصَّمغِ والمؤدِّي إلى مدرستنا كانتْ شجرةُ الصَّنوبرِ تمتدُّ أغصانُها إلى نافذةِ فصلِنا، لم تكنْ تسمحُ

لضوءِ النَّهارِ بالسُّطوعِ داخل الفصلِ، تحوِّلُ أشعةُ الشمسِ أوراقَها إلى اللَّون البنِّيِّ، ترمي بها على الأرضِ كالسَّهمِ، ملمسُ التُّرابِ على أوراقِها الملقاةِ كانَ أشبهَ بالحريرِ، كنتُ أرى أغصانَها الممتدَّةَ إلى نافذةِ الفصلِ وللعصافيرِ التي تجلسُ على أَغصانِها لوهلةٍ وتطيرُ بعدَها.

❀ ❀ ❀

كلُّ هذا قدْ بدأَ عندَما طلبتْ منَّا معلِّمةُ الرَّسمِ رسمَ شجرةِ الصَّنوبرِ.

كانتْ شجرةُ الصَّنوبرِ كجنيَّةِ الحكاياتِ، على ظهرِها عباءةٌ خضراءُ، وعلى رأسِها تاجٌ مضيءٌ، كيفَ يمكنُني رسمها؟ بأيِّ قلمٍ وأيةِّ فرشاةٍ؟ كانَ في يدي قلمُ رصاصٍ فقطْ.

نظرتُ فجأةً إلى أقلامِ التَّلوينِ التي بيدِ أصدقائي، كانَ لديهمْ جميعُ الألوانِ، كانوا يرسمونَ بأقلامِ التَّلوينِ، وكان عليَّ أنْ أرسمَ شجرةَ الصَّنوبرِ بأجملِ الألوانِ، لم يكنْ من عادتي أنْ أطلبَ مِنْ أحدٍ شيئاً إلى هذا اليومِ، ولكن يومها وجبَ عليَّ أنْ أطلبَ؛ لأجلِ شجرةِ الصَّنوبرِ كانَ يجبُ أنْ

أُضحِّي، فالإنسانُ يضحِّي بالكثيرِ من أجلِ من يحبُّ، أليسَ كذلكَ؟

❁ ❁ ❁

بدأَ الجميعُ بالرَّسمِ، منهمْ مَنْ رسَمَها بقلمِ الرَّصاصِ، ومنهم مَن لوَّنَها بالألوانِ، لكنِّي لم أشعرْ بالرَّاحةِ أبداً لرسمِ شجرةِ الصَّنوبرِ بقلمِ رصاصٍ، لم يكنْ يليقُ بها، مستحيل، هل يرسمُ الإنسانُ مَن يحبُّ بقلمٍ لا لونَ له؟! اقتربتُ من صديقي بخجلٍ:

ـ هل يمكنُني أنْ أَستخدمَ أقلامَكَ الملوَّنةَ؟

سحبَ قلمَه بردَّةِ فعلٍ مفاجئةٍ وأمسكَه، كانَ قلمُه غريباً، فوالدُه ألمانيٌّ وقرطاسيَّتُه تختلفُ عمَّا هو موجودٌ في بلدِنا، واضحٌ عليها أنَّها باهظةُ الثَّمنِ، وحتَّى لو كانَ لديكَ ثمنها فلنْ تجدَها، عدتُ فوراً إلى مقعدي أشاهدُ شجرةَ الصَّنوبرِ بحزنٍ.

❁ ❁ ❁

عندَما اقتربَ الدرسُ على الانتهاءِ، اقتربتِ المعلِّمةُ للنَّظرِ إلى ما رسمْنا، كانَتْ رسمةُ صديقي ملوَّنةً؛ الجذعُ

بنيُّ اللَّون، والأغصانُ خضراءُ، حتَّى العصفور الَّذي على الشَّجرةِ كانَ ملوَّناً، ولكنَّ الشَّجرةَ التي كانَ قدْ رسمَها لمْ تكنْ تشبِهُ شجرتي.

كانَتِ المعلمةُ تشجعُ بعضَ الطُّلابِ واضعةً يدَها على رؤوسِهم، والبعض الآخر تكتفي بإعطاءِ بعضِ الملاحظاتِ حتَّى جاءَ دَوري، حنيتُ رأسي إلى الأرضِ، كانَ دفتري خالياً من أيِّ رسمٍ، غضبتِ المعلِّمةُ وقالتْ بصوتٍ حازمٍ:

ـ لماذا لم ترسمْ؟

قلتُ لها بخجل:

ـ ليسَ لديَّ ألوان.

ـ لماذا لم ترسمْ إذاً كالبقيَّةِ بأقلامِ الرَّصاصِ؟

لم أَتفوَّهْ حينها بأيِّ كلمةٍ ولكنَّ صوتاً ما بداخلي كانَ يقولُ:

«شجرةٌ بهذا الجمالِ هلْ تُرسمُ بقلمِ رصاصٍ، هل يرسمُ الإنسانُ مَن يحبُّ بهذا الشَّكلِ؟!» ولكنَّني لم أَستطعْ قولَها.

سكتُّ، فقطْ سكتُّ.

سكتَ معي كلُّ شيءٍ حينَها، حتَّى الطيور التي على شجرةِ الصَّنوبرِ، لا أحدَ سيسْمعُنا بعدَ الآن. أمسكتُ أنفاسي، أستمعُ إلى صوتِ الرِّياحِ الخفيفِ الَّذي يحرِّكُ شجرةَ الصَّنوبرِ، كانَتِ الوحيدةَ الَّتي تَتحدَّثُ.

في عقلِ طفلٍ لم يكنْ هناكَ كلماتٌ تصفُ ما يشعرُ به، كاليأسِ الَّذي يحاولُ الوصولَ إلى الألوانِ، كالصُّراخِ بلا صوتٍ.

❁ ❁ ❁

مِن بعدِ ذاكَ اليوم، لم يكنْ يخرجُ صوتي في دروسِ الرَّسمِ، أصبحتُ كممثِّلٍ ثانويٍّ، أردتُ على الدَّوامِ قلمَ تلوينٍ لكنَّني لم أتجرَّأْ حتَّى على الحلمِ بِذَلكَ؛ لأنَّهُ ليسَ لديَّ أبٌ في ألمانيا يحضرُ لي هذا القلمَ، كانَ لديَّ أخوالٌ في ألمانيا لديهمُ الكثيرُ من الأقرباءِ ليرسلوا لهمُ الهدايا، لكنْ لمْ يأتِ الدَّورُ لي يوماً، ومع ذلكَ كنتُ أنتظرُ مجيئَهمْ كلَّ صيفٍ على أملِ أنْ يَتذكَّروني يوماً بهديةِ قلمِ التَّلوينِ.

انتظرتُهُ وبداخلي يأسٌ. وعندَ قدومِ الصَّيفِ كنتُ محقّاً

بخصوصِ ما شعرتُ به؛ لقدْ فهمتُ أنَّ انتظارِي لهمْ كانَ بلا جدوى.

❁ ❁ ❁

في ذاك الصَّيفِ أرسلتْني أمِّي إلى دورةٍ لتحفيظِ القرآنِ، طبيعتي الَّتي تتقبَّلُ كلَّ جديدٍ بحماسٍ جعلتْني أعتادُ على جوِّ الجامعِ سريعاً، بنفسِ هذا الحماسِ بدأتْ صلاتي؛ كنتُ أصلِّي في الجامعِ كلَّ صَلواتي مع بعضٍ من أصدقائي، وبدأتُ الذَّهابَ أيضاً لصلاةِ الفجرِ مع أحدِهِمْ، رغمَ قولِ أمِّي لي:

ـ توقَّفْ يا ولدي! كيف ستذهبُ إلى صلاةِ الفجرِ في هذا الظَّلامِ؟ أقمْ صلاتَكَ في المنزلِ.

لكنَّ ذلكَ لم يمنعْني من الذَّهاب. ردُّ فعلِ أمِّي لذهابي كلَّ صباحٍ وهي خائفةٌ عليَّ منَ البردِ، ومن بعدها كيفَ أخبرتِ الجيرانَ عنِّي بفخرٍ جعلني أكثرَ إصراراً على الذَّهابِ.

ذاتَ يومٍ جاءتْ إلى بيتنا جارةٌ وربتتْ على ظَهري قائلةً:

ـ أحسنتَ يا ولدي!

وقبَّلتْني من وجنتي وأعطتني خمس ليرات، فوجئتُ لماذا أعطتْني هذهِ النُّقودَ!

نظرتُ إلى السَّيدةِ، ثم إلى أمِّي.

قالتْ:

ـ خذْ يا ولدي، هذهِ لأنَّكَ تؤدِّي صلاتَكَ.

ثم قالتْ أمِّي:

ـ «أختُ العروسِ» قطعةٌ منَ القلبِ.

كانَتْ أمِّي تحبُّ هذهِ الجارةَ كثيراً؛ وكانوا يقولونَ عنها في الحيِّ «السَّيدة تشولاك»، كونها زوجة السيِّد تشولاك.

❁ ❁ ❁

كانَ للسيِّدةِ تشولاك ابنٌ في ألمانيا، لم يكنْ لديَّ الجرأةُ أنْ أطلبَ منْ أحدٍ شيئاً، لكنَّني حينها زادتْ لديَّ الشجاعةُ لأَفْعَلَ مِنْ هَذهِ السَّيدَةِ.

ـ أختَ العروسِ، أنا لا أريدُ نقوداً، فليرسلْ لي ابنُكِ دورمش من ألمانيا قلمَ تلوينٍ.

ـ بُنيَّ، أخوكَ دورمش قادمٌ قريباً من ألمانيا، ولكنِّي

حتَّى لو كتبتُ له رسالةً أخبرُهُ فيها أنْ يحضرَ لكَ قلماً فلنْ يستطيعَ جلبَها في الوقتِ المحدَّدِ.

ثمَّ قالتْ:

ـ أحضرْ لنفسِكَ قلماً بالنُّقودِ الَّتي أعطيتُكَ إيَّاها.

ـ لا يوجدُ منهُ هنا. فقطْ يوجدُ في ألمانيا.

ـ حسناً، سأقولُ لأخيكَ دورمش أنْ يحضرَ لكَ قلماً عندَ قدومِه السَّنةَ القادمةَ.

في تلكَ اللحظةِ شعرتُ وكأنَّني ملكتُ العالمَ لشِدَّةِ فَرَحي، حتَّى ولو كانَ بعدَ سنةٍ فالقلمُ سيأتي، عندَها سأكونُ في الصَّفِّ الثَّالثِ، سأجعلُ الجميعَ يرَى كيفَ تُرسمُ شجرةُ الصَّنوبرِ، حتَّى العصافير الَّتي على الشَّجرةِ سأرسُمُها.

❁ ❁ ❁

تراجعَ حينَها اليأسُ وجاءَ الأملُ؛ أخبرتُ كلَّ مَن في الصَّفِّ بخبرِ قدومِ قلم التلوينِ بعدَ سنةٍ، وبالأخصِّ ذلكَ الصَّبي الَّذي رفضَ أنْ يعطيَني قلمَهُ، كانَ هذا كلَّ ما أتمنَّاهُ.

أيَّامٌ باردةٌ، تلتْها أيَّامٌ دافئةٌ. ولكنَّ الصَّيفَ لم يأتِ بعدُ، كنتُ أنتظرُ دورمش بفارغِ الصَّبرِ، حتَّى السَّيدة تشولاك نفسها لم تكنْ تَتَشوَّقُ لِقُدومِ ابنَها بهذا القدرِ، أخوالي سيأتونَ هذا الصيفَ من ألمانيا، لكنَّني لمْ أكنْ مهتمّاً لمجيئِهم.

❁ ❁ ❁

في صباحِ يومٍ صيفيٍّ، كانَتْ هناكَ سيَّارةٌ صفراءُ اللَّون على بابِ منزلِ جارتِنا، ناديتُ أمِّي بحماسٍ:

ـ لقدْ جاءَ!

خلالَ ثانيةٍ كنتُ عندَ البابِ، رغمَ أنَّ الوقتَ كانَ مبكراً جدّاً، لكنَّ ذلكَ لم يمنعْني، أمسكتُ بثوبِ السَّيدةِ تشولاك الَّتي كانَتْ على عجلةٍ من أمرِها. تفاجَأتْ!

ـ يا أختَ العروسِ، هل أحضرَ لي دورمش قلمَ التَّلوينِ؟

توقَّفتِ المرأةُ للحظةٍ، ونظرتْ إليَّ بعدَ أنْ لاحظتِ الحماسَ الَّذي كنتُ به، وتركتْ يدي ونظرتْ إليَّ منحنيةً بنظراتٍ كلُّها حبٌّ وحزنٌ:

ـ آه يا ولدي! لقد نسيتُ تماماً أن أخبر ابني دورمش.

بلحظةٍ اسودَّتِ الدُّنيا في عينيَّ، شعرتُ بحرارةٍ بداخلهما وكأنَّ سيلاً صامتاً يجري بهما. حزنتِ السَّيدةُ تشولاك وأمسكتْني من كَتفي وحضنتْني:

ـ لا تبكِ يا ولدي، وعدٌ... سوفَ أقولُ له المرَّة القادمَة وسيحضرُهُ لكَ.

عندَما كانَتْ تَقولُ «ولدي» بنبرةٍ حزينةٍ متوسِّلةٍ، كانَتْ تعبِّرُ عن خجلِها وندمِها الشَّديدِ. عُدتُ إلى البيتِ كعصفورٍ مكسورِ الجناحِ، رُجوعي إلى البيتِ عادَتْ معه تنهُّداتُ البكاءِ الصَّامتِ، كانَ حُزناً... كانَ ألماً...

كطفلٍ لمْ تكنْ هناكَ الكلمةُ المناسبةُ لوصفِ ما شعرتُ به حينَها، لم أصغِ لإصرارِ أمِّي، خرجتُ من البيتِ متَّجهاً إلى المدرسةِ، كانَتْ حديقةُ المدرسةِ خاليةً، اتَّجهتُ إلى آخرِ ذاكَ الطَّريقِ الصَّخريِّ، جلستُ أسفلَ شجرةِ الصَّنوبرِ، لمستْ يدايَ أوراقَ الصَّنوبرِ الملقاةَ على الأرضِ المتَّجهةَ بتموُّجٍ إلى الظِّلِّ، أشمُّ رائحةَ أوراقِها الخضراءِ، رياحٌ

خفيفةٌ، ألقتْ ببعضِ أوراقِها اليابسةِ على الأرضِ، وكأنَّ شجرةَ الصَّنوبرِ تبكي أيضاً.

❁ ❁ ❁

قالتِ السَّيدةُ تشولاك: «وعدٌ منِّي سيحضرُهُ لكَ السَّنةَ القادمةَ». فليكنْ، حينَها سأكونُ في الصَّفِّ الرَّابعِ، ولكنَّهُ أيضاً يمكنُ ألَّا يأتي أبداً.

ذهبتُ إلى البيتِ، بعدَها جاءَ الوقتُ، وبدأتِ المدرسةُ، كلُّ شخصٍ ينتظرُ قلميَ الَّذي أخبرتُهمْ به بحماسٍ، حانياً كتفِي ورأسِي للأرضِ وكأنَّني مُذنبٌ.

دخلتُ من البابِ الخلفيِّ للمدرسةِ متَّجهاً إلى الطَّريقِ الصَّخريِّ، نَسائِمُ عَليلةٌ كانَتْ تحرِّكُ أَغصانَ الأشجارِ الملتفَّةِ على جدرانِ مدرستِنا، عندَ أوَّلِ خطوةٍ لي للصُّعودِ إلى سلمِ المدرسةِ الواسعِ عدتُ إلى الخلفِ قليلاً، نظرتُ إلى شجرةِ الصَّنوبرِ، ثمَّةَ صوتٌ خفيفٌ من أوراقِها الَّتي تحرِّكُها الرِّياحُ، وكأنَّ هذا الصَّوتَ يقولُ لي شيئاً.

في تلكَ السَّنةِ كلُّ أصدقائي في الفصلِ أصبحَ لديهم منْ قلمِ التَّلوينِ، بعدَ حديثي الطَّويلِ عنهُ السَّنةَ

الماضيةَ،كلُّ مَن لَديهِ قريبٌ في ألمانيا طلبَ منه قلمَ تلوينٍ، كانَ في الفصلِ شخصانِ فقطْ لا يملكانِ هذا القلمَ، كنتُ أنا أحدَهم.

❁ ❁ ❁

في أوَّلِ درسِ رسمٍ لنا، أُمنيتي كانتْ ألَّا تطلبَ منَّا المعلِّمةُ رسمَ شجرةِ الصَّنوبرِ، كانَ درسُنا الأولُّ في حديقةِ المدرسةِ، حصلَ ما كنتُ أخشاهُ، أرادتِ المعلمةُ منَّا رسمَ شجرةِ الصَّنوبرِ ومدرسِتنا معاً.

كنتُ أُحبُّ مدرسَتي بقدرِ حبِّي لشجرةِ الصَّنوبرِ، جدرانُها الصَّخريةُ الجميلةُ، لم أكنْ لأستطيعَ رسمَها ولا رسمَ الشَّجرةِ بقلمٍ غامقِ اللَّون، لِما لهمْ من قيمةٍ عندَي، كنتُ أخجلُ حتَّى من النَّظرِ إليها، لثلاثِ سنواتٍ لمْ أستطعْ رسمَها ولو لمرَّةٍ واحدةٍ.

رفعتُ رأسي نظرتُ إلى شجرةِ الصَّنوبرِ بخجلٍ وصمتٍ اعتذرتُ منها، لقدْ فهمتْني.

كانَ يوجدُ برعمٌ جديدٌ في أعلى أغصانِها، خلفهُ طائرٌ

مهاجرٌ، خائفٌ ومتوتِّرٌ، مثلي تماماً، ربَّما كانَ ينتظرُ قافلةَ الطُّيورِ المُهاجرةِ، كانَ ينتظرُ أملاً . . .

عصفورٌ، كنتُ أضعفَ مِن عصفورٍ، كانَ يجبُ أنْ أنتظرَ بأملٍ، الانتظارُ نضجٌ، رغمَ انكسارِي رضختُ للانتظار . . . انتظرتُ، انتظرتُ سنةً أخرى . . .

❁ ❁ ❁

في المدينةِ الحياةُ تستمرُّ . . . في تلكَ السَّنةِ، انتظرتُ قدومَ الإجازةِ بشكلٍ مختلفٍ عن الجميعِ. في ذاكَ اليومِ، كنتُ أجلسُ على أحدِ درجاتِ سلَّمِ بيتِنا أسفلَ شجرةِ التِّينِ الموجودةِ أمامَهُ عندَما توقَّفتْ سيارةٌ صفراءُ اللَّون أمامَ منزلِ السَّيدةِ تشولاك، كانَ دورمش، قلبي كانَ يخفقُ كقلبِ عصفورٍ، وكأنَّ القادمَ من الغربةِ كانَ والدِي.

دورمش كانَ أعزبَ، لقدْ كنتُ أنا مَن انتظرَهُ بحماسٍ بقلبِ طفلٍ صغيرٍ، فجأةً طارتْ جميعُ العصافيرِ الَّتي كانَتْ على شجرةِ التِّينِ، كنتُ أنا واحداً منهمْ، بلحظةٍ كنتُ أمامَ سيَّارتِهِ، قبَّلتُ يديهِ فوراً، لا بُدَّ أنَّه قدْ أحضرَ لي قلمَ التَّلوينِ؛ لأنَّ السَّيدةَ تشولاك هكذا وعدتْني، كانَتْ تنتظرُ

ولدَها دورمش في فناءِ المنزلِ، حضنتْ ولدَها بشوقٍ وحبٍّ، وبقيتُ أنا منتظراً في الزَّاويةِ.

لمْ أكنْ أريدُ مقاطعتَهمْ، ذهبتُ إلى البيتِ وحضنتُ أمِّي وقلتُ لها:

ـ أمِّي، لقدْ جاءَ دورمش اليوم.

لكن لمْ تشاركْني أمِّي سعادَتي.

ـ جيِّدٌ، أهلاً وسهلاً به.

قالتها غيرَ مباليةٍ.

ربَّما كانَ هناك شيءٌ يضايقُها.

نظرتُ إلى عَينيها تملؤهما الدُّموعُ، لمْ أكنْ أعلمُ سببَ بكائِها، لقدْ بدأتْ إجازةُ أخي المدرسيَّةُ في مرش، أمِّي دائماً تبكي خفيةً عندَ قدومِ أخي إلى المنزلِ، لقدْ كانَ مريضاً، دائمَ المرضِ، ربَّما دموعُها لهذا السَّببِ.

لم أسألْ أمِّي لمَ كانتْ تبكي؛ وأعلمُ أنَّها لنْ تخبرَني، ولكنَّني رغمَ ذلكَ كانَ يجبُ أنْ أُخبرَها بِما أريدُ، تطفَّلت عَليها:

ـ أمِّي، لو تَذهبينَ وتسألينَ دورمش: هل أحضرَ قَلمي معهُ؟

مسحتْ أمِّي دموعَها، ربَّتتْ على رأسي، وبدأتْ تصغي إليَّ وتشاركُني حَماسي.

ـ ولدي، لقدْ مَضَى ستتانِ ولمْ تنسَ قلمَ التَّلوينِ!؟

❁ ❁ ❁

توجَّهتْ إلى منزلِ السَّيدة تشولاك، كانَتْ كلُّ نساءِ الحيِّ يتهافتنَ إلى منزلِها.

لم يمضِ الكثير، كانَتْ أمِّي عندَ بابِ منزلِنا قابضةً يديها، عندَما تقبضُ أمِّي يديها فهذا يعني أنَّ ثمَّةَ مشكلةً، ذهبتُ فوراً إليها.

ـ أمِّي، هل أحضرَ قلمَ التَّلوينِ؟

ـ منزلُهمْ كانَ شديدَ الازدحامِ، لم أستطعْ سؤالَهمْ، لا تقلقْ! غداً أسألُها.

كيفَ لي ألّا أقلقَ! تلكَ الليلة رأيتُ أقلامَ التَّلوينِ في منامي، شجرةُ الصَّنوبرِ ومدرستي. بدأَ الصَّباحُ في الطَّريقِ على صوتِ الأذانِ، كانَتْ أمِّي صاحيةً، وأنا أيضاً.

ـ لمَ أنتَ مستيقظٌ في هذهِ السَّاعةِ المبكرةِ يا ولدي؟!

ـ في هذهِ الساعةِ لنْ يكونَ عندَهمْ أحدٌ، منَ المحتملِ أنَّ السيدةَ تشولاك أيضاً مستيقظةٌ، اذهبي الآن واسأليهمْ.

ـ أفٍّ يا ولدي أف!

في الحقيقةِ يمكنُ أنْ أذهبَ وأسألَ بنفسي، ولكنَّ إحساساً غريباً تملَّكني لا أفهمُهُ، لقدْ فقدتُ شجاعتي على السُّؤالِ يومها، خوفاً من عدمِ وجودِ القلمِ مرَّةً أخرى، أو مِن أنْ تقولَ السَّيدةُ تشولاك: «آه! ابني دورمش لم يحضر لك قلم التَّلوينِ».

لم أكنْ لأتحمَّلَ ذلكَ، أخشى مواجهةَ حقيقةٍ كهذهِ، كانَ منزلُ السَّيدة تشولاك تماماً في مواجهةِ منزلنا، عندَما رأيتُها في الفناءِ أمسكتُ بثوبِ أمِّي، وبدأتُ التوسُّلَ إليها من جديدٍ.

ـ أمِّي، أرجوكِ انظري. إنَّها في الفناءِ، اذهبي واسأليها.

ذهبتْ أمِّي إلى المرأةِ، وأنا بقيتُ منتظراً على سلمِ منزلنا، كانَتْ تشرحُ لأمِّي الوضعَ بصوتٍ منخفضٍ.

ثمَّ فجأةً نظرتِ السَّيدةُ تشولاك إليَّ منْ بعيدٍ، كانَ على وجهها نظرةٌ حزينةٌ، همستْ من بعيدٍ:

ـ آه يا ولدي!

قالتْها بنبرةٍ تملؤُها الحسرةُ:

ـ لقدْ نسيَ دورمش إحضارَهُ هذهِ المرَّة أيضاً!

كانَ قدِ انهارَ سقفُ العالمِ عندَي، في داخلي صراخٌ بلا صوتٍ، ابتلعتُ صُراخي، وكي لا يخرجَ صراخي كتمتُ أنفاسي أيضاً، أخذتُ بنفْسي إلى الدَّاخلِ مسرعاً، أطلقتُ الصُّراخَ الَّذي أمسكتُهُ، مما جعلَ عينيَّ تسيلُ كالنَّهرِ.

في البدايةِ فقدتُ رائحةَ الأملِ الَّتي في داخلي، بعدَها رائحةَ الكحولِ القادمِ من أقلامِ التَّلوينِ، كلُّ شيءٍ امتلأَ بالألمِ في قلبي الصَّغيرِ، كلُّ شيءٍ سالَ بألمٍ في عينيَّ، كلُّ شيءٍ كانَ مؤلماً وحطَّمني من داخِلي!

لن أشتمَّ رائحةَ شجرةِ الصَّنوبرِ من بَعد ذَلكَ اليوم، كنتُ أديرُ ظهري لها في كلِّ درسِ رسمٍ، كيلا أتألمَ مرةً أخرى، وأعيشَ حزنَ الانتظارِ. وحتَّى لا أمُرَّ بخيبةِ أملٍ

جديدةٍ لم أكنْ أتأمَّلُ، فالتَّأملُ يعني الفقدَ، يعني الألمَ، والموتَ مِن بعدِهِ.

❁ ❁ ❁

عندَ افتتاحِ المدارسِ دخلتُ الصَّفَّ مُنحنياً، في تلكَ السَّنةِ كنتُ الطِّفلَ الوحيدَ الَّذي لا يملكُ قلمَ تلوينٍ، كنتُ متخاصماً مع درسِ الرَّسمِ والألوانِ أيضاً، في ذلكَ الصيفِ رغمَ إصرارِ أمِّي المستمرِّ على زيارتي لأخوالي الذينَ جاؤوا من ألمانيا لتقبيلِ أيديهم والترحيبِ بهم، لكنَّني لمْ أذهبْ، ليسَ هناكَ معنى لكلمةِ أملٍ عندي بعدَ الآنَ.

كنتُ أنتظرُ انتهاءَ المدرسةِ تلكَ السَّنة بفارغِ الصبرِ، كانَتْ أبوابُ الأملِ قدِ انغلقتْ في وجهي كالصَّفعةِ، أصبحتُ أذهبُ إلى المدرسةِ عبرَ طريقٍ لا يسلكُهُ أحدٌ.

❁ ❁ ❁

غرقتُ في عالَمي الخاصِّ، عالمٌ دفنتُهُ بداخلي، كانَ العالمُ الخارجيُّ له معنى أكثر من عالَمي. في البدايةِ عشتُ الألمَ والانكسارَ بداخلي، ولكن بَعدَ ذَلكَ تماسكتُ ووقفتُ على قدمي كالكبارِ.

أخيراً انتهتِ المدرسةُ، بعدَ كلِّ ما حدثَ قررتُ الابتعادَ عنِ المدينةِ، ذهبتُ إلى مدينةٍ بعيدةٍ على أملِ عدمِ العودةِ لها، تسلَّقتُ الغيومَ الَّتي بداخلي، ولكن بعدَ مدةٍ كنتُ أتذكَّرُ الحياةَ بحسرةٍ، نظرة العصافيرِ، كنتُ أتوسَّلُ خلفَ صوتِ الغيومِ وأعيشُ الحياةَ بدونِ قطراتِ المطرِ!

❁ ❁ ❁

بعدَ سنواتٍ... وأنا في طريقِ العودةِ إلى المدينةِ عصفتْ في ذهني ذكرياتُ الطُّفولةِ، فذهبتُ إلى قرطاسيةٍ على الفورِ واشتريتُ قلمَ تلوينٍ ودفترَ رسمٍ. الآنَ أصبحتْ تُباعُ في بلادِنا أقلامُ التَّلوينِ.

في الطُّفولةِ كنتُ أستطيعُ رؤيةَ المدرسةِ منْ شرفةِ منزلنا، بعدَما انتهيتُ من السلامِ على والدتي، هرعتُ وأخذتُ أقلامَ التلوينِ ودفترَ الرسمِ وخرجتُ إلى الشُّرفةِ كطفلٍ صغيرٍ.

في الحقيقةِ لمْ أكنْ متأكِّداً من قُدرتي على الرَّسمِ، كانَتْ موهبتي في الرَّسمِ مُغيَّبةً، فقدْ تأجَّلتْ بأحلامٍ طفوليَّةٍ.

في الشُّرفةِ خدرَ رأسي كمنْ يضربُ حائطاً، جمدتُ

في مكاني، كلُّ أحلامي كانَتْ قدِ انهارتْ في تلكَ اللحظةِ، شعرتُ بألمٍ كالذي شعرتُ به عندَما كنت طفلاً.

لقد هُدمتْ مدرستُنا وأصبحَ مكانها بيوتٌ جديدةٌ، لا وجودَ للبناءِ الحجريِّ الجميلِ، ولا للطريقِ الحجريِّ في الحديقةِ، وحتَّى أشجار الحديقةِ لم يعدْ لها أثرٌ، والأكثرُ إيلاماً أنَّ شجرةَ الصَّنوبرِ قدْ أضحتْ تراباً محروقاً.

كمْ هي مؤلمة تلكَ الحقيقة! بلْ والأشدُّ إيلاماً أحلامُ الإنسانِ الَّتي سحبتْ من يديهِ، ربَّما قدِ اعتدْتُ على تلكَ الآلامِ؛ فقدْ عشتُ الكثيرَ من تدميرِ الإنسانِ لما حوله في كلِّ مكانٍ، فقدتُ كلَّ ذكرياتي الماضيةِ.

❁ ❁ ❁

خرجتُ لا ألوي على شيءٍ، صادفتُ ابنَ أختي في طريقي وهو طالبٌ في المدرسةِ الابتدائيةِ، تفاجأَ عندَما رأى قلمَ التلوينِ والدفترَ في يدي.

ـ ماذا ستفعلُ بهم يا خالي؟!

جاوبته بتوتر:

تفاجأتُ، ذُهلتُ للحظة، حتَّى إنني قد خجلتُ.

ـ خذْ! هم لكَ، سوفَ ترسمُ رسماً جميلاً بهم.

ـ ولكنَّني لا أريدُ هذهِ الأقلامَ!

ـ لماذا؟!

ـ أنا أريدُ ألواناً مائيَّةً؛ إنَّها أجملُ بكثيرٍ!

ـ هكذا إذاً، ما الَّذي ستفعلُهُ بالألوانِ المائيَّةِ؟

ـ سأرسمُ مدرستَنا والأشجارَ الَّتي في حديقتِها.

تحمَّستُ، أوَّل ما فعلتُهُ، كانَ الذَّهاب إلى السُّوقِ وشِراء مجموعةِ ألوانٍ مائيَّةٍ.

كُنْ مَنْ تَكُونُ!

توجَّهَ رجلٌ بنظراتٍ تملؤها الدَّهشةُ والتَّوترُ نحوَ البابِ، يوجدُ أشخاصٌ من كلِّ الأشكالِ والألوانِ من العيونِ المائلةِ إلى العيونِ الزرقاءِ، من البشرةِ صفراءِ اللَّون إلى السَّوداءِ. عندَما يأتي دورُك للدُّخولِ يقطعُ طريقَك شخصٌ يقفُ عندَ البابِ ملوِّحاً بيدَيه قائلاً:

ـ تذْكرَة! تذْكرَة!

ـ أيُّ تذكرةٍ؟

ـ ألا ترَى يا أخي كلَّ شخصٍ يدخلُ بتذكرةٍ؟!

ـ لا يمكنُني أنْ أشتريَ التَّذكرةَ، ليسَ لديَّ النُّقودُ.

ـ إذاً لا يمكنكَ الدُّخول إلى الداخلِ.

ـ لقدْ ناداني، فجئتُ.

ـ مَن؟

ـ ومَن سيكونُ؟! مولانا، قال لي: «كنْ مَن تكونُ، تعالَ إلى هُنا».

ـ هيَّا يا أخِي اذْهبْ لعملِكَ، انظرْ! الجميعُ ينتظرُ دورَهُ.

ـ لنْ أذهبَ إلى أيِّ مكانٍ قبلَ أنْ أدخلَ.

ـ ما هذا البلاءُ يا؟!

ـ يجبُ أنْ أدخلَ ليسَ أمامي خيارٌ آخرُ.

ـ لماذا؟

ـ لقدْ أفسدتَ توبتي مئةَ ألف مرة.

ـ ها؟!

ـ ابتعدْ من هنا ولا تدعْني أفسدها أنا أيضاً الآنَ!

ـ شمسَ الدِّينِ، تعالَ واهتمَّ بهذا الشَّخصِ.

ـ تعالَ يا أخي إلى هنا، لا تفتعلْ مشكلةً الآنَ.

ـ توقَّفْ يا أخي! لا تدفعْ.

❁ ❁ ❁

تجوَّلَ الرَّجلُ قليلاً عندَ الجدارِ الخارجيِّ، بَعدَ ذَلكَ جلسَ عندَ البابِ الخلفيِّ المغلقِ، بدأَ بالبكاءِ، بَعدَ ذَلكَ

بدقائقَ فتحَ الباب قليلاً وخرجَ رجلٌ عجوزٌ ذو لحيةٍ بيضاءَ ووجهٍ خجولٍ ورديِّ اللَّونِ دعاهُ للدُّخولِ، دخلَ وعلى وجهِهِ علاماتُ الدَّهشةِ.

بعدَ وهلةٍ خرجَ من البابِ الأماميِّ بسعادةٍ وأملٍ.

تَفاجأَ الموظَّفُ:

ـ كيفَ دخلتَ إلى الداخلِ؟

ـ سيدٌ فتحَ ليَ البابَ الخلفيَّ.

ـ ولكنَّ البابَ الخلفيَّ لا يُفتحُ!

ـ هذا ما تظنُّهُ.

ـ ومَن هو هَذا السيدُ الَّذي فتحَ لكَ البابَ؟

ـ السيدُ الَّذي ينتظرُ عندَ البابِ.

ـ لمْ أفهمْ.

ـ طبعاً لنْ تفهمَ.

ـ الصَّبرَ يا الله! وكيفَ لم نرَ؟! كيفَ أدخلَكَ إلى الداخلِ؟!

ـ طبعاً لنْ ترَى.

ـ صحيحٌ، شمسَ الدِّينِ، هذا الشَّخصُ القذرُ كيفَ لم نرَهُ؟

ـ ها؟ ماذا تقصدُ؟

ـ الَّذي يقولُ: «ها» لا يفهمُ، أمَّا مَن يقولُ: «هو» فهو سيدٌ.

ذهبَ الرَّجلُ بعيداً والحزنُ على وجهِهِ إلى أنِ اخْتفَى.

رِحْلَةُ الغُرْبَةِ

في أحدِ مستشفياتِ الجامعةِ، ستؤخذُ خزعةٌ من كَبدي، كنتُ أفكِّرُ في معنى الحياةِ وأنا مستلقٍ في أحدِ الغرفِ من دونِ أيَّةِ حركةٍ، كانَتْ هناكَ شاشةٌ في أحدِ زوايا الغرفةِ، كانَ هناكَ فوقَ الشَّاشةِ في الوسطِ خزانةٌ، وراءَها صوتُ خريرِ ماءٍ، فقدْ كانَ هناكَ حمَّامٌ، أمَّا عنِ الفراغِ هنا فتملؤهُ بعضُ الكراسي.

عندَما قالَ لي طبيبي:

ـ مِن حظِّكَ السيِّءِ، قدْ حضَّرْنا كلَّ شيءٍ، ولكنْ مع الأسفِ غرفةُ العمليَّاتِ مليئةٌ بالحالاتِ العاجلةِ، ولا توجدُ غرفةٌ متاحةٌ سِوى هذهِ الغرفة، إذا لم يكنْ لديكَ مانعٌ سأقومُ بالعمليَّةِ هنا.

تفاجأتُ كثيراً، عندَما لاحظَ الطَّبيبُ تفاجأَ وتردَّدَ. حاولَ أنْ يُهدِّئَني قائلاً:

ـ على أيَّةِ حالٍ، إنَّها عمليَّةٌ بسيطةٌ، ولقدْ أجريتُ هذهِ العمليَّةَ لمئاتِ المرضَى سابقاً.

وحاولَ أنْ يُريحَني أكثرَ بقولِهِ:

ـ لا تقلقْ، سأنتهي منها بخمسِ دقائقَ.

ـ حسناً أيُّها الطَّبيبُ، أليسَ هناكَ أي خطورةٍ؟

أَرجعَ كَتفيهِ إلى الخلفِ وفتحَ يديهِ وقَالَ:

ـ لا عزيزي، إنَّها عمليَّةٌ بسيطةٌ.

معبِّراً عن عدمِ أهميتِها، لكنَّ موقفَ الطَّبيبِ وعدمَ اهتمامهِ الشَّديدِ بالعمليَّةِ جعلني أستاءُ وأقولُ:

ـ إذا كانت فعلاً بهذهِ البساطةِ، لماذا طوالَ اليومينِ السَّابقينِ كنتمْ تزوِّدونني بالدَّمِ بشكلٍ عاجلٍ؟!

كانَ هناك يأسٌ مرسومٌ على وجهي حينَها، لكنَّهُ قَالَ:

ـ عزيزي، هناكَ خطورةٌ في أيِّ عمليَّةٍ تُجرى، بالإضافةِ إلى أنَّهُ قبلَ أيِّ عمليَّةٍ يجبُ علينا تزويدُ المريضِ بالدَّمِ الكافي.

يبدو أنَّ الطَّبيبَ غضبَ قليلاً عندَما رأى خوفي وقَالَ:

ـ إذا لم تشأْ لنْ أفعلَها، ولكنْ مِن بعدِ الآنَ لا يمكنُنا

أنْ نجهِّزَ لكَ العمليَّةَ مرَّةً أخرى، لقدْ تأخَّرتَ كثيراً عليها، وهذا خطرٌ على صحَّتكَ، ولكن في النِّهايةِ هذا قرارُكَ.

ربَّما كانَ الطَّبيبُ يحاولُ إخافتي، فقد سئمَ من مَجيئي المستمرِّ إلى المشفى، ثم فكَّرتُ أنَّه لا داعٍ للتَّأجيلِ أكثر.

ـ حسناً أيُّها الطَّبيبُ! فَلنفعلْها.

❁ ❁ ❁

على الفورِ بدأ الطَّبيب بإعطاءِ التَّعليماتِ إلى الممَرِّضِ الَّذي كانَ بجوارِه، كانَ واضحاً أنَّ الرَّجلَ لا خبرةَ له، يبدو أنَّه في مرحلةِ التَّدريبِ.

بعدَ دقائقَ قليلةٍ، جاءَ الممرضُ وبجانبِه خادمةٌ ومعهما طاولةٌ صغيرةٌ عليها بعضُ الأدواتِ والضماداتِ. أخرجتِ الخادمةُ ثوباً أخضرَ موجوداً تحتَ الطَّاولةِ، وبدأتْ بفتْحه.

في أحدِ جوانبِ الثَّوبِ كانَ هُناكَ دبوسٌ كبيرٌ، قَالَتْ لي:

ـ يجبُ عليكَ خلعُ ثيابِكَ.

خلعتُ ثيابي على الفورِ ولبستُ الثَّوبَ الأخضرَ، خرجَ الممرضُ من الغرفةِ على عَجلةٍ من أمرِه وكأنَّه قد

نسيَ شيئاً، هو أيضاً كانَ مُستعجلاً، ربَّما يحاولُ أنْ يُثير إعجابَ الطَّبيبِ بأسلوبهِ هذا.

عندَما رأى الممرضُ الطَّبيبَ عندَ البابِ ذهبَ خارجاً، ولكنَّهُ لم يتأخَّرْ، أخبرَني أنَّه عليَّ أنْ أستلقيَ على جانبي الأيسرِ، كانَ دبوسُ الثَّوبِ الأخضرِ تماماً على مكانِ الكبدِ.

أخذَ الطَّبيبُ يبحثُ عن مكانٍ مناسبٍ لضربِ الإبرةِ؛ يتلمَّسُ بطرفِ إصبعهِ الأيمنِ المكانَ بينَ العضلةِ والعظمِ، عندَما وجدَها أشارَ إليها.

❁ ❁ ❁

بسببِ طبيعتي المتشائمةِ، بدأتُ بالتَّفكيرِ بألفِ احتمالٍ؛ احتمالِ ألَّا يستطيعُوا أخذَ الخزعةِ عندَ أولِ حقنة إبرةٍ، وأنْ يُعيدوا المحاولةَ مراراً وتكراراً.

إلى أنْ يأخذوا الخزعةَ مِن كَبدي حينَها لنْ يتبقَّى لي دمٌ! زادَ توتُّري كلَّما فكَّرتُ بِذَلكَ، قبلَ أنْ أفهمَ شيئاً، أدخلَ الإبرةَ في المكانِ الَّذي حدَّدَهُ.

عندَ دُخولها بشكلٍ ثابتٍ إلى داخلِ كبدي شعرتُ

وكأنَّ جسدي بأكملهِ يتقطَّعُ معها، لم أستطعِ التقاطَ نفَسي، وكأنَّها لم تكنْ إبرةً، بلْ سيخَ حديدٍ، رُوحي كانَتْ تحترقُ، ولكن لم تكنْ لديَّ القوَّةُ حتَّى لأحرِّكَ شِفاهي.

أمسكَ الطَّبيبُ بقطعةٍ مِن كبدي بالإبرةِ وسحَبها خارجاً، شعرتُ بشيءٍ ينتزعُ منِّي. انتهتِ العمليَّةُ أخيراً!

أو ربَّما تهيَّأ لي ذلكَ، نظرَ إلى الخزعةِ محرِّكاً رأسَه يميناً ويساراً قائلاً:

ـ لمْ يحصلْ ذلكَ مِن قبلُ.

وكأنَّه يحاولُ أن يرميَ بمسؤوليةِ ما حصلَ على غيرِه، عدتُ إلى وعيي.

❁ ❁ ❁

عندَما بدأَ الطَّبيبُ بإدخالِ الإبرةِ للمرَّةِ الثَّانيةِ لاحظَ أنَّني أحاولُ أنْ أقولَ شيئاً بعيوني، ولكنَّه لم يُعطِ أيَّ اهتمامٍ، وقَالَ:

ـ حسناً أفهمُك، لا تخفْ.

عندَما استقرَّتِ الإبرةُ للمرَّةِ الثَّالثةِ بداخلي، شعرتُ بروحي تخرجُ معَها، حاولتُ تحريكَ أصابِعي معبِّراً عن

أَلمي، ولكن لم تكنْ حتَّى لديَّ القوةُ لذلكَ، شعرتُ بشيءٍ يتمزَّقُ بداخلي، لقدْ أصبحتُ أفهمُ هذا الشُّعورَ جيِّداً الآنَ، رصصتُ على أسناني بقوَّةٍ، لم أكنْ أصرخُ، مع أنَّ رُوحي كانَتْ في ذَروةِ أَلمها، كانتْ دُموعي ورُوحي الَّتي تحترقُ يتنازعونَ بصمتٍ.

عندَما رأيتُ الابتسامةَ على وجهِ الطَّبيبِ نسيتُ ألمي لحظةً، ولكنني خفتُ أنْ يُحاولَ للمرَّةِ الرَّابعةِ، لكنَّه نظرَ إلى الخزعةِ وقَالَ:

ـ لقدْ نجحْنا هذهِ المرَّةَ.

في المحاولةِ الأولى والثَّانيةِ شعرَ الطَّبيبُ بذنبهِ، حتَّى إنَّه كانَ يتجنَّبُ النَّظرَ إلى عينيَّ، لكن في نهايةِ المحاولةِ الثالثةِ نظرَ إليَّ عندَما رأى دموعي وقَالَ بِتَلاميحَ مازِحَةٍ:

ـ هلْ ألمُكَ إلى هذا الحد؟!

حينَها لم أنظرْ إليهِ إلَّا بنظراتِ المكسورِ، ماذا كانَ يمكنُ أنْ أقولَ؟

كانَ يجبُ أنْ يفهمَ ألمي عندَ عدمِ ردِّي على سؤالهِ

ودموعي تملأُ عينيَّ، في النهايةِ فهمَ الطَّبيبُ الألمَ الَّذي شعرتُ به ونظرَ إلى الممرضِ وقَالَ:

ـ هلْ أعطيتَهُ القليلَ من المخدِّرِ؟

في العادةِ يتمُّ حقنُ مخدِّرٍ موضعيٍّ في المنطقةِ الَّتي تُجرى فيها العمليَّةُ.

نظرَ الممرضُ إلى الطَّبيبِ مستغرباً:

ـ ولكن أيُّها الطَّبيبُ لقدْ غضبتَ منِّي في العمليَّةِ السَّابقةِ، وقلتَ لي: «منَ الآنَ فصاعداً أنتَ من سيُجري التَّخديرَ».

ضربَ الطَّبيبُ رأسَه بيديهِ وقَالَ بصوتٍ عالٍ:

ـ آه يا إلهي!

ثمَّ نظرَ إليَّ بنظرةٍ كلها تأسُّفٍ وندمٍ محاولاً طلبَ السَّماحِ قائلاً:

ـ لا تؤاخذْني، كلُّ المصائبِ كانَتْ منْ نَصيبكَ.

هذهِ المرَّةُ لم أُظهرْ أيَّ ردِّ فعلٍ، استدرتُ إلى طرفي الأيمنِ، كانوا قدْ وضعوا كيسَ رملٍ مكانَ العمليَّةِ. استلقائي في عمليَّةٍ دامتْ لمدَّة ثماني ساعاتٍ من دونِ أيِّ حركةٍ، ونزيف الدَّمِ الَّذي لم يتوقَّفْ، والنَّتائج العكسيَّة

الَّتي ظهرتْ خلالَ العمليَّةِ، بعدَ أنْ أصبحَ كلُّ شيءٍ واضحاً، كان كافياً لِتَجعلَني أَلْتزمُ الصَّمتَ.

الآنَ ذهبَ الطَّبيبُ وتوارَى عنِ الأنظارِ بعدَ أنْ أعطَى تعليماتِهِ الأخيرةَ للممرضِ. الممرضُ والخادمةُ أيضاً بعدَ أنْ جمعا الأدواتِ تركا الغرفةَ وخرجا، بقيتُ وحيداً في الغرفةِ، كانَ معي صديقي الوحيدُ، لمْ يستطعِ الدخولَ إلى غرفةِ العمليَّاتِ كمرافقٍ لي، ولم يسمحوا له أيضاً بالدخولِ إلى المَشفَى.

كانَ كلُّ جزءٍ من جسدي يؤلمني حينَها، حتَّى عندَما كنتُ أتنفَّسُ ببطءٍ، وعندَما أخذتُ نفساً عميقاً شعرتُ بألمٍ يستحيلُ وصفُهُ.

❁ ❁ ❁

عندَما بقيتُ وحدي في الغرفةِ فكَّرْت كثيراً، وبعدَ هذا الكمِّ الهائلِ من سوءِ الحظِّ الَّذي عشتُهُ تملَّكني شعورٌ سلبيٌّ، يدورُ في رأسي ألفُ احتمالٍ واحتمالٍ، كنتُ أحاولُ إسكاتَ الصَّوتِ الَّذي يهمسُ بداخلي متسلِّحاً بإيماني، «ما أسوء ما قدْ يحدثُ؟ طبعاً الموتُ».

خطرتْ فكرةُ الموتِ فجأةً، لنْ يعيشَ الإنسانُ أكثرَ مِنْ عُمرهِ ولا أقلَّ. هذهِ الحقيقةُ أتتْ لإنقاذي، التجائي إلى ميناءِ القدَرِ قدْ أنقذَني من الصَّوتِ الَّذي كانَ يهمسُ بداخلي.

لا تسيرُ الحياةُ كما نظنُّ، تكونُ في مكانٍ ما وبمكانٍ آخرَ لا تكونُ، الإنسانُ خُلقَ لغايةٍ، وجميعُ المخلوقاتِ أيضاً خُلقتْ لغايةٍ. بالمختصرِ لقدْ بدأتُ حينَها أفكِّرُ في معنى الحياةِ.

بينَما أنا مُستغرقٌ في فهمِ كَينونةِ الحياةِ وحدي، دخلَ رجلانِ إلى الغرفةِ وكانَ واضحاً من ثيابِهما أنَّهما عمَّالُ نظافةٍ، أصواتُهما تصدحُ، كانَا يتصرَّفانِ بلا مبالاةٍ، وعندَ رُؤيتي قَالا:

ـ أُفٍّ! يوجدُ مريضٌ هنا!

واتَّجها إلى النَّوافذِ لِفَتْحِها، عندَما فُتحتِ النَّافذةُ دخلَ منها هواءُ شباط الباردُ، واحدٌ منهما أشعلَ سيجارتَهُ واتَّكأَ على النَّافذةِ وبدأَ الحديثَ مع صديقِهِ، شعرتُ بالبردِ، بدأَ دخانُ السِّيجارةِ يحرقُ صَدري، أردتُ أنْ أتكلَّمَ ولكن عندَما فكَّرتُ بالألمِ الَّذي سأشعرُ به، لم أقوَ على

الحديثِ، كنتُ مواجهاً لهما، أنتظرُ أنْ يَنظرا إليَّ فلنْ أستطيعَ التَّحدثَ إلَّا بإشارةٍ مِن عَيني.

❁ ❁ ❁

حانتْ فُرصتي، فقدْ نظرَ الرَّجلُ ذو الحواجبِ السَّميكةِ والشِّفاهِ الغليظةِ إليَّ، انتهزتُ الفرصةَ سريعاً وبدأتُ أشيرُ بعينيَّ مبدياً رَغبتي بإطفاءِ السِّيجارةِ، ورغمَ فَهْمه ما أردتُ قولَهُ، إلَّا أنَّه نظرَ إليَّ وقَالَ:

ـ لنْ يحصلَ لكَ شيءٌ. انظرْ إليَّ أنفخُ خارجاً.

كانَ مدركاً في الحقيقةِ أنَّ الدُّخانَ الَّذي ينفخُهُ خارجاً بسببِ الهواءِ يعودُ إلى الداخلِ، كانَ واضحاً من تعابيرِ وجهي هذهِ المرَّة عدمُ رضايَ عن تصرُّفهِ لكنَّه لم يفهمْ، لمْ أكنْ أعي أنَّ العيشَ المستمرَّ بينَ ناسٍ يحتقرونَكَ ولا يعطونَكَ أهميةً بهذهِ الصُّعوبةِ.

بعدَ وقتٍ ليسَ بالقصيرِ جاءتِ الخادمةُ إلى الغرفةِ وعلى وجهها ضحكاتٌ فظَّةٌ، وتلاقتْ عينايَ مجدَّداً مع الرَّجلِ، أشرتُ له هذهِ المرَّة بأنْ يُغلقَ النَّافذةَ، فأغلقَها ولكن لنصفِها، وخرجَ مسرعاً من البابِ.

بعدَ مدَّةٍ، دخلَ إلى الغرفةِ طبيبٌ شابٌّ عيناهُ خضراوانِ وشعرُه ناعمٌ مع ممرضةٍ شقراءَ ذاتِ أنفٍ كبيرٍ. طرقَ الطَّبيبُ البابَ ودخلَ وأقفلَه بمفتاحهِ، ومعَ دخولِه خرجَ عمَّالُ النَّظافةِ.

❁ ❁ ❁

هُنالِكَ نقطةٌ مشتركةٌ لديهمْ، فالجميعُ يتعاملونَ معي بفظاظةٍ وعدمِ مبالاةٍ، من المؤكَّدِ أنَّ كثيراً من المرضَى قدْ أجرَوا عمليَّاتٍ هنا وأزعجَهمْ تصرُّفُ طاقمِ المَشفَى، شعرتُ أنَّني دونَ أيِّ قيمةٍ كمثلِ الأشياءِ الجامدةِ، أفكِّرُ فقطْ ولا يُسمحُ لي بقولِ أيِّ شيءٍ أو بفعلهِ.

فجأةً قرَّرتُ أن أضعَ نفسي مكانَ هذهِ الأشياءِ البلهاءِ، وضعتُ نفسي مكانَ شخصٍ غيرِ مهمٍّ، حجرٍ، تربةٍ، شجرةٍ، وحتَّى ربَّما حيوانٍ، تخيَّلتُ ذلكَ؛ كزهرةٍ شُمَّتْ ثمَّ رُميتْ على الأرضِ ودُهستْ بلا مبالاةٍ، أو مكانِ عصفورٍ تمَّ اصطيادُه وهو يطيرُ في السَّماءِ، أو كإنسانٍ ينعتُهُ النَّاسُ بالجنونِ.

أطرقت ذهني أنَّ لكلِّ مخلوقٍ حياتَهُ، ويستحقُّ كلُّ

مخلوقٍ التَّقديرَ. . . . لعلَّ سببَ معاناتِنا هو عدمُ تقديرِنا لغيرِنا أو لباقي المخلوقاتِ.

❁ ❁ ❁

فجأةً حاولَ أحدُهمْ فتحَ البابِ. قَالَ:

ـ لمَ هذا البابُ مقفلٌ؟

توجَّه الطَّبيب إلى البابِ سريعاً لفتحِهِ مع الممرضةِ الشَّقراءِ وكانَ يبدو عليها التَّوترُ، عندَما فتحَ الطَّبيبُ البابَ أطلَّتْ ثلاثُ ممرِّضاتٍ إحداهُنَّ ذاتُ عينينِ سوداوينِ. ولدى رؤيةِ الممرِّضةِ الشقراءِ قَالَ لها:

ـ آه، أنت هنا.

ثمَّ دخلن وتَجوَّلن داخلَ الغرفةِ قليلاً، سحبتْ إحداهُنَّ كرسيّاً إلى الوسطِ، وبدؤوا بشربِ الشَّاي، وبعد انتهائهم وضعوا الفناجينَ في الخزانةِ بعدَ غسلِها، ثمَّ تركتِ الممرِّضةُ الشَّقراءُ الغرفةَ بعدَ أنْ ودَّعَتْهم بطرفِ إصبعِها قائلةً:

ـ أراكُمْ لاحقاً.

وخرجَ مِن بعدِها الطَّبيبُ. أوَّلُ ممرِّضةٍ لاحظتْ

وجودي كانَتْ ذات العينينِ السَّوداوينِ، قَالَتْ للتي بجانبِها فورَ رؤيتي:

ـ يوجدُ مريضٌ على النقَّالَةِ.

فقَالَتْ لها الممرِّضةُ الثَّالثةُ دونَ مُبالاةٍ:

ـ إنَّه مريضُ الطَّبيبِ ذو العيونِ الزَّرقاءِ، أخذَ خزعةً منه قبلَ قليلٍ.

ثمَّ عادوا إلى حديثِهِمْ وصخبِهِمْ، شعرتُ مرَّةً أخرى بأنَّني شخصٌ بلا أهميَّةٍ.

توجَّهوا بَعدَ ذَلكَ إلى البابِ ولكنَّ الممرِّضةَ سوداءَ العينينِ شعرتْ برائحةِ الدُّخانِ في الغرفةِ فتوجَّهتْ إلى النَّافذةِ وفتحتْها قليلاً، ثمَّ خرجتْ وتركتِ البابَ مفتوحاً أيضاً، شعرتُ ببرودةِ هواءِ شباط مرَّةً أخرى.

بعدَ قليلٍ، دخلتِ الممرِّضةُ مساعدةُ الطَّبيبِ إلى الدَّاخلِ ووضعتْ يدَها على أنفِها وقَالَتْ:

ـ آه، قد أشعلَ أحدُهمْ سيجارةً هنا.

ثمَّ قاستْ نبضي وحرارَتي وسجَّلتْ ملاحظاتِها على اللَّوحةِ في طرفِ السريرِ، ثمَّ نظرتْ إليَّ وسألَتْني:

ـ كيفَ حالُكَ؟

❁ ❁ ❁

عندَ سؤالِها وكأنَ العالمَ أصبحَ ملكيّاً، كانَتْ أوَّلَ شخصٍ يتعاملُ معي بشكلٍ جيِّدٍ لساعاتٍ كثيرةٍ مضتْ، استطعتُ حينَها أنْ أستجمعَ قِوايَ قليلاً وتشكَّرتُها بحركةٍ مِن شِفاهي، ثمَّ طلبتُ منها إغلاقَ النَّافذةِ، فابتسمتْ وأغلقتِ النَّافذةَ، لكنَّها خرجتْ دونَ إغلاقِ البابِ.

بعدَ برهةٍ منَ الزَّمنِ، سمعتُ صراخَ امرأةٍ تتألمُ وحركةَ ضجيجٍ في الممرِّ، وتجمَّعَ النَّاسُ وعَلا بكاءُ المرأةِ؛ جميعُ هذهِ الأصواتِ خفَّفتْ عنِّي وحدَتي قليلاً.

وفي لَحظَةٍ انتقلَ الازدحامُ إلى داخلِ غرفتي، كانَتِ الممرِّضةُ تشرحُ وضعَ المريضِ (أنا) لمَنْ كانَ برفقَتِها:

ـ هذا الرَّجلُ كانَ يُعاني من ورمٍ دَمَويٍّ، لقدْ تلفَ كبدُهُ، أقصى ما يمكنُ أنْ يعيشَه شهراً، هلْ تظنُّ أنَّه كانَ سيعيشُ للأبدِ؟

كنتُ داخلَ هذا الحديثِ القاسي، كمْ هو مؤلمٌ أنْ

تَرى أنَّ حياتَكَ غيرُ مهمَّةٍ عندَ الآخرينَ، الموتُ هنا كمَنْ يرمي بشيءٍ قديمٍ في القمامةِ.

❁ ❁ ❁

كانَ هُناكَ امرأةٌ عندَ البابِ، أخرجتْ علبةَ مِكياجِها من الحقيبةِ، وأخذَتْ تضعُ منها على وجْهها، رفعتْ رموشَها بأطرافِ أصابِعِها. ناداها صوتٌ من الخارجِ فوضعتْ أحمرَ الشِّفاهِ في عجلةٍ داخلَ حقيبتِها وخرجتْ.

بعدَ نصفِ ساعةٍ، حانَ وقتُ قدومِ الممرِّضةِ المناوبةِ، أخذتْ نبضي وحرارتي من جديدٍ وسجَّلتْ ملاحظاتِها على اللَّوحِ الَّذي بجانبِ السَّريرِ، ثمَّ ذهبتْ بعدَ أنْ قَالَتْ لي:

ـ نَوبَتي انتهتْ بعدَ ساعَتين. ستأتي ممرِّضةٌ أخرى لتخرجَكَ.

استجمعتُ قواي قليلاً، ولكنِّي إلى الآنَ لا أستطيعُ قولَ أيِّ شيءٍ خوفاً من الألمِ الَّذي سأشعرُ بهِ.

❁ ❁ ❁

حلَّ الليلُ، ودخلَ بعضُ الخدمِ إلى الغرفةِ وأقفلوا البابَ.

أقامُوا صلاتَهمْ ثمَّ خرجوا، كانَ آخرَ مَن دخلَ الغرفةَ طبيبٌ، أخرجَ من جَيبهِ قطعةَ نايلون، ومدَّها على الأرضِ فأصبحتْ سجَّادةً كبيرةً، أيضاً أقامَ صلاتَهُ ثمَّ خرجَ، ابتسمتُ عندَما أدْركتُ أنَّ لهذهِ الغرفةِ فائدةً.

اشتدَّ الظَّلامُ، ولم يعدْ يوجدْ أحدٌ، كانَ فقطْ صوتُ آهاتِ المرضَى. اقتربَ وقت ذهابي، لم يكنْ هُناكَ ما يُوحي بخطورةِ حالتي لأنَّ كلَّ شيءٍ كانَ يَبدو طَبيعيّاً، ولكنَّني رغمَ ذلكَ كانَ يجبُ أنْ أبقَى مترقِّباً لأيِّ شيءٍ، يمكنُ أنْ يبدأَ النَّزيفُ مثلاً عندَ تحرُّكي.

كنتُ أنتظرُ الممرِّضةَ الَّتي ستُخرِجُني، كانَتْ عيناي ترقبانِ البابَ، وفجأةً دخلَ شابَّانِ إلى الغرفةِ، كانَا يرتديانِ ثيابَ المناوِبين، ألْقيا السَّلامَ عليَّ فورَ رُؤيتي، وسُعدتُ بِذَلكَ. نظرَ أحدُهما مجدَّداً وسَأَلاني ماذا بي، وسرعانَ ما فَهِما أنَّني لنْ أستطيعَ الجوابَ.

أعدَّا الشَّايَ وبَدَأا الحديثَ بصوتٍ منخفضٍ، لقدْ فهمتُ أنَّهما لا يريدانِ إزعاجِي، سألَ الطَّويلُ النَّحيلُ صديقَهُ ذا العيونِ الزَّرقاءِ عن وضعي:

ـ كيفَ له أن يعيشَ؟! لا يوجدُ أملٌ.

يقولُ الأطباءُ: ربَّما قدْ يعيشُ شهراً واحداً لا أكثر. فالشَّخصُ الَّذي توفِّي اليوم كانَ بنفسِ حالتهِ، أحلامُهُ تبخَّرتْ في الهواءِ، كانَ واضحاً أنَّ معنوياتِه منخفضةٌ جداً.

ثمَّ رفعَ الرَّجلُ الطَّويلُ النَّحيلُ بإصبعهِ وقَالَ مواسياً لصديقه:

ـ لا يُقطعُ الأملُ منَ اللهِ. الحياةُ هكذا... في يومٍ نكون، ويومٍ آخرَ لا نكون. المهمُّ أنْ تفهمَ الغايةَ من حياتِكَ كمؤمنٍ في هذهِ الدُّنيا.

أصغيتُ إلى كلِماتهِ، كنتُ أحاولُ فهمَ معنى الحياةِ، لكنَّني ما زلتُ عاجزاً. استمرَّ في حديثهِ قائلاً:

ـ الهدفُ من الحياةِ أنْ تفهمَ الإنسانَ والكونَ، وأنْ تؤمنَ باللهِ وتطيعَهُ.

ـ نعم، نعم، لقدْ قرأتُ هذا من قبلُ. ما استنتجتُه حينَها.

لقدْ جاءَ إلى الغرفةِ أخيراً شخصٌ يستطيعُ التَّحدثَ، أصغيتُ لهما عندَما بدأا بالحديثِ بصوتٍ منخفضٍ.

وعندَما عمَّ الهدوءُ؛ بدأتُ أفكِّرُ في معنى الحياةِ

مجدَّداً: الممرِّضةُ ذاتُ العينينِ السوداوينِ، وتلكَ الأخرى محمرَّةُ الخدودِ، وزميلتُهما صاحبةُ الشَّعرِ الأجعدِ الَّتي تُنهي دوامَها بسعادةٍ وتخرجُ من المشفَى بضحكةٍ تملأُ وجهَها، الطَّبيبُ ذو العينينِ الزرقاوينِ، والطَّبيبُ ذو العينينِ الخضراوينِ الَّذي تركَ المشفَى منذُ زمنٍ، عاملُ النَّظافةِ ذو الحواجبِ السَّميكةِ، الممرِّضةُ الَّتي كانَتْ في الممرِّ، الطَّبيبُ الَّذي أدَّى صلاتَهُ هنا مرَّةً بعدَها لم أرهُ أبداً...

في آخرِ اللَّيلِ تسمعُ أصواتَ أنينِ المرضَى القادمةَ عبرَ أبوابِ الممرِّ المفتوحةِ.

❁ ❁ ❁

أخيراً وضعتِ الممرِّضةُ عندَ البابِ ورقةً عندَ طرفِ السَّريرِ، كنتُ بوعيي ولكن لا أستطيعُ الحراكَ. تركتِ الممرِّضةُ الغرفةَ بعَجلةٍ، ومع شروقِ الشَّمسِ ذهبَ الجميعُ، وكلُّهمُ استعدَّ للذهابِ منذُ منتصفِ اللَّيلِ، بقيتُ لوحدي، لقدِ انْتهى وقتي.

كنتُ أتألَّمُ من الدَّاخلِ وأتقطَّعُ من كلِّ طرفٍ، قامتِ الخادمةُ بتحريكِ النقَّالةِ من مكانِها وتوجَّهنا نحو البابِ.

لقدْ ذهبَ الجميعُ وأنا أيضاً سأذهبُ، وكأنَّني لم أعِ شيئاً. في طرفِي الأيمنِ ألمٌ عميقٌ، وبينَما كنتُ مستلقياً على نقَّالة متأرجحةٍ متَّجهاً نحو البابِ الخارجيِّ، وإذ بممرِّضةٍ عندَ البابِ تستمعُ إلى أغنيةٍ في الرَّاديو:

«أنا في طريقٍ طويلٍ أذهبُ إليهِ ليلَ نهارَ».

هَمَسْتُ بِداخِلي: نعم نَحنُ أيضاً في طريقِ رحلةِ الغربةِ.

الثُّعبانُ وموسمُ الحصادِ

في موسمِ الحصادِ الممتدِّ طوالَ الخريفِ، تمتصُّ أشعةُ الشَّمسِ المضيئةُ على مناطقِ المحصولِ قطراتِ الندَى من أوراقِ العنبِ وأوراقِ العشبِ الرَّقيقةِ النَّائمةِ في مناطقِ المحصولِ، تتبعثرُ قطراتُ النَّدى المتبخِّرةُ من ضوءِ الشَّمسِ كصوتٍ خفيفٍ يتردَّدُ صداهُ في السَّهلِ القريبِ، تمحو أشعةُ الشَّمسِ جمودَ اللَّيلِ الغافي في الهواءِ، ومعَ أوَّلِ إشراقةٍ لها أيضاً تدفنُ خمولَ النَّاسِ المتجوِّلينَ بينَ حقولِ العنبِ، ويرتفعُ في مناطقِ الحصادِ الدخانُ المنبعثُ من مواقدِ الشَّايِ. تنتشرُ في الحقولِ الموائدُ أكواماً أكواماً ويتحرَّكُ الضَّبابُ ببطءٍ باتِّجاهِ السَّهلِ، يحلُّ السُّكونُ دوماً في أوَّلِ يومٍ للحصادِ، تعلو الصَّرخاتُ والنداءاتُ وتصلُ حدودَ السَّهلِ وبالأخصِّ عندَ المساءِ، حيثُ تنشطُ الحركةُ، تُنقلُ براميلُ المياهِ على ظهورِ الحيواناتِ، ويُذهَبُ بها إلى جدولِ الماءِ (كافكولتو). إنه صندوقُ

العنبِ الأخيرُ أوشكَ على تعبئتهِ مع إعدادِ مائدةِ الطَّعامِ.

❁ ❁ ❁

كمْ كنتُ أحبُّ التَّحديقَ في النَّاسِ وهمْ يقومونَ بعصرِ العنبِ. تلامسُ الرِّياحُ الخفيفةُ القادمةُ من الشرقِ الوجوهَ، وتُعطي معنىً للحياةِ ونسماتُ صوتِها تملأُ الأرجاءَ مترافقةً مع بدءِ الشَّمسِ بتدفئةِ السَّهلِ.

عندَ ولادةِ الطَّبيعةِ في الرَّبيعِ، تذهبُ النسوةُ مرتديةً الحجابَ الأبيضَ المزخرفَ يتجوَّلنَ بين المحاصيلِ الخضراءِ لتحضيرِ طعامِ الصَّباحِ.

عندَما تحتدُّ أشِعَّةُ الشَّمسِ أذهبُ إلى عرائشِ العنبِ، حتَّى أستطيعَ اللحاقَ بالمائِدَةِ أقومُ مسرعةً بقطفِ العناقيدِ وتعبئتِها في الصَّناديقِ.

عندَما كنتُ أبحثُ عن آخرِ عنقودٍ بينَ الأوراقِ المتراصَّةِ فيما بينَها شعرتُ بنعومةٍ في طرفِ إصبعِي، هذهِ النعومةُ لم يكنْ قدْ أعطاني إيَّاها العنبُ من قبلُ، كانَ يتجوَّلُ إصبعي بينَها يتلمَّسُها كلمساتِ الأعْمى، تلكَ النُّعومةُ الباردةُ الَّتي قد شعرتُ بها للتوِّ تحوَّلتْ فجأةً

لحرارةٍ، فقمتُ بسحبِ يدي من بينِ الأوراقِ بسرعةٍ، أخذتُ بيدي بخاخاً ورششتُه على الأوراقِ.

يا لَلهولِ! ثعبانٌ ملتفٌّ أسفلَ العريشةِ! رميتُه لا شعورِياً بالبخَّاخِ الَّذي بيدي على جنبٍ، صرختُ بصوتٍ جنونيٍّ عالٍ كطفلٍ في السَّابعةِ أو الثَّامنةِ من عمرِهِ.

ـ ثُعباااان!

هذهِ المرَّة قدْ وصلَ الصَّوتُ إلى السَّهلِ مبكراً على الأكيدِ، نهضَ والدي من مكانهِ مسرعاً، وعَلا صوتُ الضَّجيجِ في السَّهلِ، وكأنَّ الجميعَ قدْ نهضَ، الرجالُ في الحقلِ جاؤوا مسرعينَ.

هبَّتْ رياحٌ خفيفةٌ بينَ العرائشِ، وبدأَ العصفورُ بالطَّيرانِ بينَ أشجارِ الفستقِ، واختبأَ كبارُ السِّنِّ بقلقٍ، والدخانُ الصادرُ منَ الأفرانِ غدا أسودَ اللَّونِ.

❁ ❁ ❁

بدأَ الثُّعبانُ بالتَّحرُّكِ فهربتُ بسرعةٍ وصرختُ للمرَّةِ الثَّانيةِ:

ـ ثُعباااان!

قامَ جيرانُنا في الحقلِ؛ عثمانُ وإدريس ومحمدٌ وإيمي برشٌّ العرائشِ واحدةً تلوَ الأخرى، وكانَ أبي لا يخافُ من الثُّعبانِ أبداً، أخذَ يتجوَّلُ بينَ العرائشِ باحثاً عنه.

جميعُ مَن في الحقلِ جاؤوا إلينا وبيدِهم قضبان، خِفتُ، والتجأتُ إلى حضنِ أمِّي.

ـ يا بُنيَّ، هل أنتَ متأكدٌ أنَّ ما رأيتَه كانَ ثُعباناً؟!

ـ نعم! واللهِ لقدْ كانَ ثعباناً، وكانَ رمادياً.

ـ الثَّعابينُ الرماديةُ تكونُ سامَّةً وقاتلةً، مع العلمِ أنَّها لم تقتلْ أحداً من قبلُ. ربَّما يبالغونَ قليلاً.

مازالَ البحثُ مستمرّاً، ظهرَ صوتٌ غريبٌ، قَالَ وهو يصرخُ:

ـ آه! إنَّه هنا.

وبدأَ التوتُّر، بلحظةٍ توجَّهَ الجميعُ نحو مكانِ الصَّوتِ متأهِّبينَ وبيدِهم عصيُّهمْ، ينزلونَ بحرصٍ.

تركتِ النساءُ أشغالَها وأخذنَ يشاهدنَ ما يجري بقلقٍ، والأصواتُ تتهافتُ:

ـ اضربْ! اضربْ!

فجأةً انقطعتِ الأصواتُ، ثعبانٌ رماديٌّ كبيرٌ حاولَ التَّسلقَ على طرفِ بخَّاخِ الرَّجلِ. كانَ منظرُه بارداً، وقعَ على الأرضِ وأخذَ يتلَفَّظُ أَنفاسَهُ الأخيرةَ.

عندَما رأيتُ الثعبانَ بهذهِ الحالةِ شعرتُ بألمٍ لا يوصفُ في قلبي كطفلٍ، كلُّ هؤلاءِ النَّاسِ وثعبانٌ واحدٌ!؟

بَعدَ ذَلكَ أصبحتُ سعيداً، لأنَّ كلَّ هؤلاءِ النَّاسِ قدِ اهتمُّوا بحياتي، تركوا أشغالَهمْ وجاؤوا لإنقاذِ حياتي، اهتمامُ النَّاسِ بكَ شعورٌ جميلٌ حقاً.

كنتُ داخلَ أحاسيسَ كثيرةٍ، كنتُ قدْ خِفتُ من الثعبانِ، ولكنَّ منظرَه الأخيرَ الَّذي بقيَ في ذهني قدْ أزالَ كلَّ ذلكَ الخوفِ.

❁ ❁ ❁

كلُّ شيءٍ قدْ عادَ إلى طبيعتِه عندَ بدايةِ يومٍ جديدٍ، بدأتِ الأحصنةُ بالصَّهيلِ، والأطفالُ باللعبِ، حتَّى جارنا المجاور عثمان قدْ بدأَ يغنِّي أغنيةً سعيدةً، لم يعدْ موضوعُ الثعبانِ يُخيفني، قمتُ مجدَّداً بأخذِ الصُّندوقِ فورَ انتهائي من تناولِ طعامي. قالت:

أمي:

ـ اجلسِ الآنَ يا بنيَّ، أبوكَ سيقومُ بقطفِ العنبِ.

لمْ أسمعْ كلامَها وذهبتُ، فالإنسانُ يستطيعُ فعلَ ما يريدُ عندَما يتَلاشى الخوفُ. انتهى موسمُ الحصادِ، الأوراقُ وقفتْ كقصائدِ ريحٍ باردةٍ متدافعةٍ، بِيعَ العنبُ وتمَّ التحضيرُ لفصلِ الشتاءِ. حانَ الآنَ وقتُ الراحةِ، كانَ الكلُّ جاهزاً لأداءِ دورِه، الكبارُ للذهابِ إلى المدينةِ، والأطفالُ إلى المدرسةِ، والسماءُ لتمطرَ، والجبالُ لحملِ الماءِ.

❁ ❁ ❁

وفي يومِ عطلةٍ، أرادَ النَّاسُ أنْ يستفيدوا لآخر مرَّةٍ من دفءِ الشَّمسِ، كانوا يتحدَّثونَ مع بعضهم عندَ أسفلِ الجدارِ، وكنتُ أشعرُ بالثِّقةِ لوجودي بينَ هذا الازدحامِ، فإذا ما وقعَ الإنسانُ في مصيبةٍ ذات يومٍ سيجدُ الكثيرَ من النَّاسِ حولَهُ لمساعدتِهِ.

فجأةً جاءتِ الخالةُ أمينةُ إلى ساحةِ المدينةِ قادمةً منَ الحيِّ العلويِّ وهي تركضُ متألِّمةً، توجَّهتْ كلُّ الأنظارِ

إليها، كانتْ كطيرٍ يريدُ التَّحليقَ في السَّماءِ، تارةً ينزلُ وتارةً يحلِّقُ.

كانَ الكلامُ على طرفِ لسانِها، ولكنَّها قدْ نسيتْ ما تريدُ قولَه، وكأنَّ كلَّ الأسماءِ في فمِها عبارةٌ عن مصطفَى، كانَتْ تُنادي على مصطفى القادمِ لأمامها، وقفتْ أمامَ سيارةٍ مركونةٍ عندَ ظلِّ شجرةٍ، بصدمةٍ أخذتْ تُنادي:

ـ لقدْ وقعَ ابني مصطفى من السَّقفِ وشُجَّ رأسُه، إنَّه ينزفُ كثيراً، أرجوكَ فلنذهبْ إلى المستشفى في بحيرةِ باشا. لمنْ هذهِ السَّيارةُ؟

ذهبتْ إلى صاحبِ السيارةِ، فتراجعَ خطوةً إلى الخلفِ ولاحظَ اضطرابَ المرأةِ.

ـ أرجوكَ يا مصطفى، دعْنا نأخذ طِفلي إلى المَشفى.

لم يكنِ اسمُ صاحبِ السيارةِ مصطفى؛ لكنَّ المرأةَ كانَ واضحاً عليها أنَّها في حالةِ صدمةٍ، وأخذتْ تُنادي على الجميعِ باسمِ مصطفى، كانَ الرَّجلُ عابساً، وذهبَ فوراً إلى الخلفِ.

ـ أُختي أمينةُ، لا يوجدُ عندي بنزين!

ركضتْ بلهفة إلى وسطِ الازدحامِ:

ـ أرجُوكم ساعدُوني، أريدُ سيارةً تأخذُني إلى المَشفى، طفلي في خطرٍ.

البعضُ ابتعدَ، والبعضُ قَالَ:

ـ ليسَ لديَّ سيارةٌ.

وبعدَها خرجَ شخصٌ من وسطِ الازدِحام وقَالَ:

ـ فليأخذْ أحدُكُمُ الطفلَ، وسأدفعُ أنا نقودَ البنزين.

توجَّهتِ الخالةُ أمينةُ بعجزٍ إلى منزلها، كانَتْ فقيرةً ولم يكنْ زوجُها موجوداً، ولم يكنْ لها أصدقاءُ، كانَتْ بمثابةِ الذِّراعِ والجناحِ لأربعةِ أطفالٍ.

عندَما تَبدَّدَ الازدحامُ لمْ يساعدِ الرَّجلُ الَّذي تكلَّمَ أمامَ الجميعِ المرأةَ. كنتُ أمرُّ بزلزالٍ في عالمي الطُّفوليِّ.

كانَتْ تنتظرُ أنْ يقولَ أحدُهم وسطَ هذا الازدحامِ: «سأدفعُ ثمنَ البنزين، هيَّا دعينا نأخذ الطفلَ»، ولكنَّهُ لم يحصلْ.

قبلَ شهرٍ وفي موسمِ الحصادِ ألمْ يكونُوا همْ مَن ركضوا للمساعدةِ؟ بلحظةٍ أصبحتْ ثِقتي ملامسةً للأرضِ.

❁ ❁ ❁

عدتُ إلى البيتِ مُندهشاً مما قدْ رأيتُهُ وأخبرتُ أمِّي عمَّا جرَى.

ـ أمِّي، لم يساعدْها أحدٌ، بينَما ساعدَني الجميعُ عندَما كنتُ في الحقلِ.

قلتُها بألمٍ وضيقٍ. وبعدَها وقفتُ ولبستُ ثيابي بسرعةٍ وخرجتُ؛ ذهبتُ إلى منزل الخالةِ أمينةَ.

بعدَها بيومٍ، كانَ مصطفى ملطَّخاً بأقلامِ التَّلوينِ عندَ عودتِه من المدرسةِ، عانقتْهُ والدتُه بكلِّ جوارحِها.

مرَّ الوقتُ وذابَ الثلجُ من على الجبالِ، وأزهرتِ الأشجارُ ونضجتْ ثمارُ الفاكهةِ، وتدفَّقتْ جداولُ الماءِ، واستطعتُ اللحاقَ لمرَّةٍ أخرى أيضاً بموسمِ الحصادِ.

أُعيدَ تعميرُ منطقةِ سوكونونو من الأشجارِ بهمَّةٍ، وانتقلَ جميعُ سكانِ المدينةِ للاستقرارِ بها.

معَ سطوعِ أوَّلِ ضوءٍ في اليومِ ذهبَ النَّاسُ من جديدٍ

إلى حقولِ الحصادِ، في الصَّباحِ يتحولُ الضَّبابُ الخفيفُ الَّتي تشكِّلُه قطراتُ النَّدى إلى أدخنةٍ تتصاعدُ في السُّهولِ، تعاشُ في الصباحِ من جديدٍ ثمالةُ الصمتِ، ويكتملُ المنظرُ.

أحبُّ هذهِ اللَّحظةَ وهذا المكانَ مثل كلِّ وقتٍ يكونُ قطفُ العنبِ وظيفَتي، كنتُ قدْ كبرتُ سنةً وأصبحتُ أستطيعُ التقاطَ عناقيدِ العنبِ بتمكُّنٍ أكثرَ، ولكنِّي لم أكنْ أمدُّ يدي قبلَ النَّظرِ إلى أسفلِ العريشةِ.

❁ ❁ ❁

فجأةً وعندَ هدوءِ الصَّباحِ صوتُ طفلٍ يصرخُ ويقولُ:

ـ تُعبااان.

قَالَتِ امرأةٌ:

ـ آه يا صغيري!

من جديدٍ يُصغي جميعُ الرجالِ في حقولِ الحصادِ إلى المكانِ الَّذي صدرَ منه الصوتُ عندَ صراخِ الطفلِ للمرَّةِ الثانيةِ.

ركضَ الجميعُ حاملاً بيدِه البخاخاتِ متَّجِهينَ إلى ذاكَ الجانبِ، كانَ يمكنُني رؤيتهمْ.

وبلحظةٍ حلَّ الصُّراخُ مكانَ الصمتِ، وامتلأَ الجوُّ للحظةٍ بالبكاءِ والجشاءِ، بدأَ الكبارُ الذين وصلُوا أولاً إلى مكانِ الحدثِ بالبحثِ عنِ الثعبانِ، كانَ بجانبِ الطفلِ أمُّه وأبُوهُ فقطْ، قَالَتِ الأمُّ وهي تضربُ على ركبِها عاجزةً:

ـ آه يا ولدي!

لقدْ لدغَه الثُّعبانُ. كانَ يحاولُ والدُ الطفلِ إخبارَ الجميعِ بشيءٍ ما، توسَّلَ، ولكنَّهمْ كانوا مشغولينَ بمطاردةِ الثعبانِ. لاحظوا بَعدَ ذَلكَ توسُّلَه، ولكنَّه كانَ قدْ أخذَ الطفلَ إلى حضنهِ وذهبَ سريعاً بالسَّيارةِ إلى بحيرةِ باشا. استمرَّ بالجري باتجاهِ الطَّريقِ، لم يكنْ هُناكَ أحدٌ يتبعُه.

بعدَ قليلٍ، حاولَ الثعبانُ من جديدٍ أنْ يتسلَّقَ على أحدِ البخاخاتِ، عمَّتِ السَّعادةُ والغرورُ الأجواءَ؛ ثعبانٌ واحدٌ ومئاتٌ منَ الرِّجالِ، لم أجدْه هجوماً عادلاً، منازعةُ الثعبانِ روحه عندَ طرفِ البخاخِ قدْ آلمني مرَّة أخرى، ولكنَّ وضعَ الطفلِ قدْ آلمني أكثر.

ربَّما حزنتُ على الثعبانِ لأنَّ النزاعَ لَمْ يكنْ عادلاً، فالخروجُ من الحربِ منتصراً يعتمدُ على تصرُّفِك. اختفَى الرَّجلُ الَّذي كانَ يحملُ الطفلَ في حضنِه عنِ الأنظارِ، وتركتُ صندوقَ العنبِ الَّذي كنتُ أحملُه بيدي، وكأنَّ قدمي قدْ تجمَّدتْ عندَ رؤيتِهم. جلستُ فوقَ الصندوقِ وبدأتُ في داخلي بالتَّعليقِ عمَّا رأيتُه، كنتُ أعلِّقُ جيداً على الأحداثِ الكبيرةِ، وتذكرتُ حادثةَ الثعبانِ الَّتي حدثتْ معي السَّنة الماضِية.

وبدأتُ أفكِّرُ في البدايةِ، توسُّلُ الخالةِ أمينةَ في ساحةِ المدينةِ، وبعدَها الثعبانُ الَّذي لدغَ الطفلَ، خطواتُه المضطربةُ العاجزةُ، وبعدَها النَّاسُ الَّذين يعشقُون قتْلَ الثعبانِ.

الثعبانُ لا يمكنُ أن يضرَّ بالإنسانِ، ولكنَّ أنانيةَ الإنسانِ فقطْ وخوفَه على نفسِهِ تدفعُه للمساعدةِ عندَ السَّماعِ بوجودِ ثعبانٍ.

هذا يعني أنَّ الإنسانَ يفكرُ بنفسِه فقطْ، لأنَّ كلَّ ثعبانٍ حيٍّ هو خطرٌ على حياتِهم، فالجميعُ يقلقُ أنْ يأتيَ إلى حقلِه

أيضاً، يعني أنَّهم أتَوا للمساعدةِ فقطْ. وفي الحقيقةِ هم يُجرُّونَ وراءَ مصلحتِهم، لو لم يكنْ كذلكَ لكانَ الجميعُ تركَ المطاردةَ وساعدوا والدَ الطفلِ وذهبوا معه.

ربَّما لم يكنْ كذلكَ، ولكنَّني في قلبي كطفلٍ أرَى المنظرَ هكذا. جاءتْ أمِّي إلى جانبي وكانَتْ تعلمُ أنَّني تأثَّرتُ بما حدثَ:

ـ اذهبْ يا بُنيَّ وارتحْ، سأكملُ أنا القطافَ.

ذهبتُ وتمدَّدتُ أسفلَ شجرةِ البلوطِ، فكَّرتُ بما حدثَ مطوَّلاً، مع أفكاري المختلفةِ؛ حاولتُ فهمَ عالمِ الكبارِ، ولكن لم أخرجْ بشيءٍ، الأفضلُ أنْ أبقَى في عالمي الطفوليِّ؛ نزيهاً، نقياً، دونَ أيِّ رياءٍ.

❁ ❁ ❁

عادَ كلُّ شيءٍ في السهلِ إلى طبيعتِه، بعدَ أنِ ارتحتُ قليلاً أخذتُ صُندوقي وذهبتُ مجدَّداً أمشي بينَ العرائشِ.

بعدَما عشتُه يجبُ أنْ أكونَ متمكِّناً أكثرَ، وفجأةً رجفَ قلبي، سحبتُ يدي بسرعةٍ. كانَ هُناكَ ثعبانٌ رماديٌّ مستلقٍ وملتفٌّ على نفسِه، واضعاً رأسَه في منتصفِ الجذعِ، ربَّما

كانَتْ بيوضُه تحتَه. نظرتُ أولاً إلى الخطرِ الَّذي يمكنُ أنْ نُلحقَه به.

هذهِ المرَّةُ لم أصرخْ: «ثعباااان»، حتَّى إنني لم أكنْ أفكِّرُ بالصُّراخِ، لو أنَّني صرختُ كانَ سيأتي الجميعُ ويقتلونَ الثعبانَ وأنا سأجلسُ وأنظرُ متألِّماً.

تقدَّمتُ ببطءٍ، أردتُ رؤيةَ الثعبانِ مجدَّداً، كانَتْ عيناهُ مَفْتوحَتَينِ، نظرَ إليَّ وكأنَّ في عينيه خوفاً من الموتِ؛ ربَّما هذا ما تهيَّأَ لي وبصراخي كانَ يمكنُ أن أقتلَه، حتَّى يؤذيَني يجبُ أنْ أكونَ قدْ آذيتُه أنا أولاً، وإذا سكتَ لا أنا ولا هو سنتضرَّرُ، أيضاً لدى الثعبانِ الحقُّ في العيشِ.

ناداني أبي من بعيد:

ـ بنيَّ! هلْ مِن خَطْبٍ هُناكَ؟

ـ لا، لا يوجدُ شيءٌ.

أخذتُ صندوقي ببطءٍ وذهبتُ إلى العريشةِ المجاورةِ، لم يكنْ أبي يعيدُ قطفَ العرائشِ الَّتي تخطَّيتُها.

كانَ يقولُ:

ـ بما أنَّكَ قدْ نسيتَ قطفَ العنبِ الَّذي في هذهِ العريشةِ، فهيَ من حقِّ العصافيرِ.

لذلكَ ارتاحَ قلبي، عندَما كانَ ينامُ الثعبانُ كنتُ أغنِّي بهدوءٍ، الجميعُ كانَ هادئاً ولا أحدَ يجري في الحقولِ، ولا صراخَ، ولا اضطرابَ.

الوَحِيدُ غَرِيبٌ ومَرِيضٌ!

إنَّ الشتاءَ قاسٍ في أنطاكيةَ، كانَ أخي الكبيرُ يقيمُ في منزلٍ مع شخصٍ أعزبَ، في هذا الفصلِ كانَ يتجمَّدُ من بردِه؛ فالغرفةُ الَّتي يجلسُ بها نافذتُها الخشبيَّةُ مثقوبةٌ، وفي وسطِ الغرفةِ مدفأةٌ كهربائيةٌ صغيرةٌ تسطعُ كوهجٍ أحمرَ، ولكنَّها بلا فائدةٍ بالكادِ تدفِّئ نفسَها.

في أيامِ العاصفةِ الشديدةِ، كنَّا نقطعُ من أشجارِ الصَّنوبرِ الموجودةِ في حديقةِ المدرسةِ مقابلَ بيتِنا لنغطِّيَ بها ثقوبَ النافذةِ، وعندَما نبردُ كثيراً كنَّا نلتفُّ بالمزيدِ من الأغطيةِ.

كانَ النَّظرُ من النافذةِ والإطلالةُ من قمةِ أنطاكيةَ إلى أسفلِ الجبلِ يكفي حتَّى تدركَ شدةَ العاصفةِ، كما كانَتِ الريحُ تنزعُ الأشجارَ من جذوعِها وترمي بها، فيمكنُكَ معرفة طبيعةِ الريحِ من منظرِ الأشجارِ المائلةِ حتَّى في فصلِ الصيفِ، وهكذا تستطيعُ معرفةَ المناخِ في أنطاكيةَ.

عندَ مَجيئي إلى أنطاكيةَ كانَ أخي مريضاً. وجدتُه مستلقياً على سريرِهِ، وقد اشتدَّتْ معاناتُه مع الروماتيزم بازديادِ البردِ؛ هذا المرضُ اللعينُ يلازمُه منذ عدةِ سنواتٍ.

استيقظتُ مبكِّراً ذلكَ الصباحِ، وضعتُ الشايَ على الموقدِ، وقدْ هدأتِ العاصفةُ لتوِّها، فإذا بأخي يحاولُ النهوضَ من سريره، فذهبتُ لمساعدتِه، وكانَ وجهُه ساخناً كحرارةِ القنديلِ. مسكينٌ أخي، لا زوجةَ تؤنسُه في وحدتِه، ولا أحدَ يُعِدُّ له الطعامَ. كم كانَتْ تعابيرُ الحزنِ في وجهِه مؤلمةً!

❁ ❁ ❁

لأخي صوتٌ جميلٌ، كانَ يسترسلُ بالغناءِ ثمَّ يحبسُه بداخلِه. الغناءُ أصبحَ كالغصةِ على طرفِ لسانِه، بلعَ الأغنيةَ وأغلقَ البابَ على قلبِه.

استجمعَ قواهُ، وأخذَ يكتبُ الكلامَ الَّذي على طرفِ لسانِه، حتَّى لو لم تكنْ أغنيةً كانَ يحبُّ أنْ يكتبَها، لقدْ وجدتُ هذهِ الكلِّماتِ مكتوبةً على ورقةٍ فوقَ الطَّاولةِ:

«الـصَّـديـقُ كـالـصِّـحـةِ

الـمـرَضُ كـالـعَـدوِّ

الـحـبُّ كـالـطـفـلِ

ولكن لا يوجدُ ألمٌ كالجوعِ»

وكتبَ أسفلَها ملاحظةً «أخافُ أنْ أكونَ مخطئاً إذا لمْ يوافقْني الجميعُ الرَّأيَ».

كيفَ لهُ ألَّا يفهمَ قيمةَ الصحةِ وهو إنسانٌ عانى من ألمِ الجسدِ والمرضِ سبعة وعشرين عاماً؟!

لم ينتبهْ لي وأنا أنظرُ إليهِ بعيونٍ سارحةٍ، بعدَ أنْ جمعَ كتاباتِه مِن على الطاولةِ عادَ وتبسَّمَ ابتسامةً مصطنعةً. لم تكنِ ابتسامتُه، فقدْ كانَ ما يجري بداخلِه يمنعُه أنْ يتبسمَ، اقتربتُ نحوَه وعانقتُه وعانَقني وكأنَّني ولدُه، لستُ ولدَه ولكنَّني أخوهُ، لم أُشعرهُ بالأخوةِ الَّتي بينَنا لمدةٍ طويلةٍ.

الطقسُ دافئٌ قليلاً؛ أرادَ الخروجَ برهةً واستنشاقَ بعضِ الهواءِ، نظرْنا إلى بعضنا للحظةٍ، كانَ هُناكَ أملٌ في عينيهِ، لكنَّه لم يضحكْ، وقَالَ لي:

ـ استعدَّا! سوف! نخرجُ، ربَّما نذهبُ إلى مكانٍ دافئٍ نتناولُ الحساءَ ونأكلُ الكنافةَ.

لوهلةٍ عادتْ له الفرحةُ، لقدْ تحسَّنَ، وعندَما مررْنا بازدحامٍ في الشارعِ الرَّئيسيِّ متجهينَ نحوَ مبنى مجلسِ هاتاي القديمِ مروراً بجسرِ نهرِ العاصي إلى أنطاكيةَ القديمةِ؛ تجاوزْنا الجسرَ وعندَ دُخولنا للشوارعِ الضيقةِ عندَ تقاطعِ الجدارِ العالي تملَّكنا إحساسٌ بقِدَمِ المكانِ الَّذي يعودُ إلى مئاتِ السنين.

كانَ قدْ جفَّ نهرُ العاصي عندَ الوادي العميقِ. وفي قمةِ المدينةِ دخلْنا إلى فناءِ جامعِ الحبيبِ نجَّار.

❁ ❁ ❁

كدليلٍ سياحيٍّ أخبرَني أخي عنْ حكايةِ الجامعِ وعن حضرةِ الحبيبِ نجار، وعنْ تاريخِ مدينةٍ عائدٍ لمئاتِ السنين، وعنِ النسيجِ الاجتماعيِّ أيضاً. كانَ حبُّه لهذهِ المدينةِ واضحاً، فقدْ كانَ مهتمّاً بشرحِ كلِّ شيءٍ عنها، كما لم يكنْ يشرحُ عنْ شيءٍ من قبلُ بهذا الاهتمامِ.

الآنَ أصبحتُ أفهمُه، فخلال شرحِهِ كانَتِ السعادةُ

واضحةً على وجهِه، كأنَّه يعرفُ كلَّ شيءٍ عن أنطاكيةَ، حتَّى ولو انحدرْنا لموضوعِ الدِّينِ فلا يوجدُ شيءٌ لا يعرفُه، ألقَى السَّلامَ على شخصينِ خرجا في طريقنا، يبدو عليه الانزعاجُ عندَما يتعاملُ معه النَّاسُ كشخصٍ مريضٍ، وفي الوقتِ الذي يتحدَّثُ فيه مع أحدِهم يحاولُ جاهداً أنْ يَتناسَى مرضَهُ ولا يجعل أحداً يشعرُ به. لم أسمعْه أبداً يَشتكي من وضعِه.

كانَ صابراً ومؤمناً؛ كانَ مايزالُ طفلاً عندَما مرضَ وكلُّ هذهِ السنواتِ من عدمِ شكايتِهِ وتحمُّلِه تُظهرُ كم هو شخصٌ صبورٌ.

كانَ أكثرَ ما يخشاهُ أنْ يَصلَ لمرحلةٍ لا يقوَى فيها على إخفاءِ المرضِ؛ هذا التفكيرُ كانَ يعيدُه إلى الوراءِ، وما زادَ في قلقِه آخر ما قدْ عاشَه من وحدةٍ وضعفٍ.

لقدْ تعبَ عندَما عُدْنا إلى البيتِ، وذهبَ سريعاً ليستلقيَ على سريرِهِ.

كانَتْ عيناهُ تنظرانِ إلى الكتبِ الموجودةِ فوقَ رفٍّ على الجدارِ، وكأنَّ كلَّ زاويةٍ في الغرفةِ أصبحتْ صديقةً له.

ربَّما كل يومٍ محيطُه يتوسَّعُ قليلاً، ربَّما أصبحَ صديقاً حتَّى مع العنكبوتِ المستقرِّ هنا في الزَّاويةِ على الجدارِ، حتَّى معَ أصغرِ بقعةٍ سوداءَ، لابدَّ أنَّه قدْ حفظَ كلَّ مخرجٍ مهما كانَ صغيراً.

من المحتملِ أنَّه ينظرُ لكلِّ شيءٍ على أنَّه شخصٌ، بحالتِه هذهِ، من الجيِّدِ أنَّني بدأتُ بتفسيرِها بداخلي، حتَّى أفهمَه جيداً بدأتُ أنا أيضاً بالنظرِ إلى الحائطِ والرفوفِ الَّتي عليه.

❁ ❁ ❁

فجأةً وقعتْ عيني على كتابٍ عنوانُه «رسالةُ الأمراضِ» فتحتُ الكتابَ وبدأتُ بتصفُّحه، كانَتْ صفحاتُه قديمةً جداً، على ما يبدو أنَّه هديةٌ من أحدهمْ لكنَّني لم أعرفْ اسمَهُ، كانَ واضحاً من أوراقِ الكتابِ المهترئةِ أنَّه كانَ يواسي نفسَهُ بقراءتِه خلالَ حياتِه المرضيَّةِ، ربَّما هذا هو سرُّ قوَّتِه وتحمُّلِه.

وقعتْ عيناياَ على جملةٍ في أوَّلِ صفحةٍ في الكتابِ:

«المُواسي الحقيقيُّ للمرضِ بإجماع خمسة وعشرين ادعاءٍ هو المرأةُ»، بدأتُ بقراءةِ الادِّعاءاتِ بدقةٍ أكثرَ:

«البشارةُ أيَّها المريضُ! لا تقلقْ، اصبرْ، فمرضُك ليسَ همّاً ربما هو نوعٌ من أنواعِ العلاجِ، لأنَّ العمرَ مرحلةٌ تمرُّ، وإذا لم نجدْ فاكهتَها تكونُ حينَها الخسارةُ الحقيقيةُ، أيضاً إذا كانَتْ براحةٍ وغفلةٍ فسوفَ تذهبُ سريعاً، مرضُكَ هو إرادتُكَ باتخاذِ القراراتِ الهامةِ، اجعلْه فاكهتَكَ.

إلى المريضِ الَّذي ليسَ لديه صبرٌ، اصبرْ! وبل اشكرْ ربَّكَ، فمرضُكَ هذا سيجعلُكَ تحسبُ الدَّقائقَ دقيقةً دقيقةً لتقتربَ إلى عبادتِكَ أكثرَ. نعم! العمرُ الَّذي يمرُّ بمرضٍ بشرطِ ألَّا يكونَ فيهِ شكايةٌ، يُعتبرُ كالعبادةِ للمؤمنِ بروايةِ صالحٍ.

إلى المريضِ الَّذي لا يتحمَّلُ! الإنسانُ لم يأتِ إلى هذهِ الدُّنيا ليستمتعَ ويستلذَّ بها، والشاهدُ على ذلكَ أنَّ نهايةَ الحياةِ هي الموتُ ونهايةَ الشبابِ هي الشيخوخةُ، وكلُّ شيءٍ في النهايةِ سيزولُ ويفارقُنا.

هذا يعني أنَّ الإنسانَ لم يأتِ إلى هذا العالمِ فقطْ ليعيشَ بسعادةٍ ولا لأجلِ أنْ يمضي عمرهُ براحةٍ وصفاءٍ.

ربَّما الإنسانُ الَّذي بيدِهِ إرادةٌ قويةٌ، جاء إلى هذهِ الدُّنيا ليعملَ على سعادتِه بعبادتِه وتجارتِه، فالمساحةُ الَّتي بينَ يديهِ هي عمرُه.

إذا لم يكنْ مريضاً وأُعطيتْ له نعمةُ الصحةِ والعافيةِ؛ ستكونُ الدُّنيا جميلةً له ولكنَّه سَينْسَى الآخرةَ، ويفتحُ المرضُ العينينِ فجأةً قائلاً لكَ: «لا تقفْ عاطلاً، لديكَ عملٌ».

اتركْ كبرياءَكَ وفكِّرْ بمنْ خلقَكَ، اعلمْ أنَّكَ ستذهبُ إلى القبرِ يوماً وعلى أساسِها استعدَّ.

لهذا السَّببُ يُعتبرُ المرضُ ناصحاً لا يهملُ، ومرشداً موقظاً لصاحبِه. لا تشتكِ منه، بلِ اشكرْ ربَّكَ على هذا الجهادِ. إذا شعرتَ بألمٍ يفوقُ طاقتكَ، فاطلبِ الصَّبرَ».

❁ ❁ ❁

كانَتْ عيوني تُسجلُ كلَّ سطرٍ تقريباً، كلُّ جملةٍ أقرؤها تبعثُ بداخلي الفرحةَ، كنتُ أفكِّرُ ربَّما أنَّهُ توفيقٌ من ربِّ العالمينَ؛ لأنَّ هذا الكتابَ وقع بيدي في فترةٍ حساسةٍ أمرُّ

بها، حتَّى لو لم أُظهرْ ذلكَ ولكن مرضَ أخي كانَ يمزِّقُ قلبي حزناً، المنظرُ الَّذي رأيتُه قبلَ أيامٍ وكأنَّهُ جعلني أعيشُ عُمراً ثانياً؛ أنْ أشهدَ على مرضهِ من قريبٍ.

ورؤيتي لمعاناتِه بالذَّاتِ أثَّرتْ بي عميقاً، فأنا أيضاً بحاجةٍ إلى المواساةِ، وصاحبُ هذا الكتابِ على الأغلبِ كانَ بجانبِ شخصٍ يدعمُهُ ويسانِدُه.

❁ ❁ ❁

حتَّى هذا اليوم لم يُقصِّرْ أخي في عبادتِه، عندَما فكرتُ بِذَلكَ تبسَّمتُ ابتسامةً حقيقيةً عن أخي. هل أفكرُ بنفسِي الآنَ، كانَ هو كلَّ همِّي.

«أيُّها المريضُ اليتيمُ، الغريبُ البشارةِ! إذا استبدلتَ مكانَ الوحدةِ والغربةِ؛ فلمرضِكَ الوحيدِ في غربتكَ بدلٌ، سوفَ يجلبُ لكَ الرحمةَ والحظَّ».

هذه آخرُ كلمةٍ إلى شقيقي؛ جِئنا إلى آخرِ نقطةٍ للحزنِ العميقِ الَّذي غذَّيتهُ بداخلِكَ: «إذا كانَ اللهُ معنا فهذا يعني أنَّه لدينا كلُّ شيءٍ، فكيفَ لنا أنْ نحزنَ ونشتكيَ الوحدةَ واللهُ معنا؟!».

كانَ أخي يقرأُ هذهِ السُّطورَ وحدَهُ ويواسي نفسَهُ بها، اطَّلعتُ على قلبي، وعُدتُ بداخلي إلى بدايةِ حياتي وفكَّرتُ فيها، لابدَّ أن أخي أيضاً شعرَ نفسَ الشعورِ، كنتُ قدْ قرأتُ الكتابَ بتمعُّنٍ، وكنتُ قوياً وسعيداً، فقدْ عرفتُ سرَّ تحمُّلِ أخي لمرضِهِ طوالَ السَّبع والعشرين سنَة.

❁ ❁ ❁

يا لَيتني قدْ تعرفتُ على هذا الكتابِ من قبلُ، هل كنتُ لأعيشَ لأشهرٍ أعاني من النَّومِ في غرفةِ مشفى؟

عندَما انتهيتُ من قراءةِ الكتابِ كانَ أخي قدْ نامَ، وقد كتبَ بعضَ الحِكمِ:

«الصَّديقُ كالحقِّ
القوَّةُ كالإيمانِ
ولا يوجدُ ألمٌ كالغفلةِ»

أحمد أكبينار

فِعْلُ خَيرٍ واحِدٌ يُنْقِذُ أَلفَ روحٍ

في ذاكَ المساءِ كنتُ أشعرُ بانزعاجٍ يستحيلُ وصفُه، هلْ لأنَّ صديقي في السكنِ سيذهبُ إلى مدينتِه وسأبقَى وحدِي هنا؟ أم لأنَّني قدْ رسبتُ بدرسٍ مهمٍّ جداً؟ لا أعلمُ، بعدَ أيامٍ لديَّ امتحانٌ مهمٌّ ولكنْ لا رغبةَ لي في الدِّراسةِ.

قبلَ اتِّجاهي إلى سريري ببطءٍ، ذهبتُ إلى الحمَّامِ وجدَّدتُ وضوئي، كانَ العشاءُ قريباً، لبستُ معطفي وأخذتُ المذياعَ الصغيرَ معي وخرجتُ.

كانَ دفءُ النهارِ لم ينكسرْ بعدُ، وحرارةُ الأرضِ ملتهبة؛ هبَّتْ على وجهي رياحٌ دافئةٌ فعدتُ لأخلعَ معطفي، ولكنِّي تراجعتُ وذهبتُ باتِّجاهِ جامعِ إسكندر باشا.

عندَما أشعرُ بضيقٍ أذهبُ إلى هذا الجامعِ القديمِ، وأجلسُ في فنائِه. هذا مكاني المفضَّلُ؛ أجلسُ في الفناءِ عندَ شجرةِ الشينار وأستمعُ إلى تغريدِ العصافيرِ، كنتُ أفرحُ عندَ سماعِ صوتِ الأذانِ.

كانَ يقتربُ إلى الجامعِ، البعضُ من كبارِ السنِّ وكلُّ مَن يحملُ حزناً في وجهِه. رُفِعُ الأذانُ فاستعجلتُ وجلستُ ككلِّ مرَّةٍ تحتَ القبةِ، كنتُ أعلمُ أنَّ هذا الجامعَ الكائنَ في طرابزون قدْ تمَّ بناؤهُ في خمسة عشرة يوماً فقطْ. فعندَما كانَ الإمامُ يغادرُ الجامعَ في اللَّيل يأتي بديعُ الزمانِ ويجلسُ في منتصفِه.

لم أتركِ الجامعَ بعدَ الصلاةِ، وبقيتُ جالساً لمدةٍ من الزمنِ في الوسطِ، تأخرَ الوقتُ وخرجَ الإمامُ من الجامعِ، بقيتُ جالساً في الفناءِ تحتَ الشَّجرةِ وبداخلي ضيقٌ لا يوصفُ، لكنَّه قدْ خفَّ قليلاً، وبدأتُ بالتفكيرِ كيفَ استطاعَ بديعُ الزمانِ بناءَ هذا الجامعِ بخمسة عشرة يوماً فقطْ وفي برودةِ شهرِ شباط!

ثمَّ فكرتُ مليّاً كيفَ استطاعَ يا تُرى الذهابَ من فان إلى طرابزون ماشياً على سطحِ الثلجِ أو حتَّى مستخدماً المزلاجَ! بدأتُ أشعرُ بالبرد والرَّجفانِ، هذا يعني أنَّه عندَما يفكِّرُ الإنسانُ بالبردِ فسيبردُ حتماً.

❁ ❁ ❁

بخطواتٍ بطيئةٍ ذهبتُ إلى المنزلِ، وكأنَّ قدميَّ تسحبُني للخلفِ، لم أكنْ أعرفُ لماذا لمْ أرغبْ في الذهابِ إلى المنزلِ، ولكن في هذهِ الساعةِ المتأخرةِ إلى أينَ يمكنُني أنْ أذهبَ!

تلهيتُ قليلاً في الطَّريقِ، وكانَتِ المقاهي لم تغلقْ إلى الآنَ؛ وكانَ النَّاسُ فوقَ بعضهم البعض، سحبتُ كرسياً لأجلسَ ثمَّ تراجعتُ وذهبتُ لتسلِّقِ تلةِ بوز، وفجأةً خرجَ صوتُ موسيقى من المذياعِ وبعدهُ إعلانُ تبرُّعٍ بالدمِ:

ـ «هُناكَ طفلٌ مريضٌ في مشفى الفارابي بحاجةٍ إلى دمٍ عاجلٍ، زمرةُ دمِه (O سلبي)».

تجمَّدتُ في مكاني؛ فهذهِ زمرةُ دمي، ثمَّ فكرتُ بأنَّه يوجدُ المئاتُ في هذهِ المدينةِ الكبيرةِ من زمرةِ دمي نفسِها، وأكملتُ طريقي، وأنا أصعدُ بتردُّدٍ.

كانَ في داخلي ضيقٌ قدْ تكرَّرَ من جديدٍ، وكأنَّني كلَّما اقتربتُ من البيتِ خطوة يزدادُ معَها، وعندَما أصبحتُ أمامَ البناءِ تعبتُ ونظرتُ إلى الأعلى محدِّثاً نفسي:

«لَيتنا لم نستأجرْ آخرَ طابقٍ» ثمَّ قلت: «بهذهِ النُّقودِ بالكادِ كنَّا نستطيعُ أن نستأجرَ كوخاً».

❁ ❁ ❁

وأنا أحاولُ دخولَ بابِ البناءِ سمعتُ إعلانَ التبرُّعِ بالدمِ من جديدٍ، للمشفى نفسِها وللمريض ذاتِه، توقَّفتُ وكنتُ أشعرُ بالتعبِ الشديدِ، وكانَ عندي امتحانٌ في اليومِ التالي صباحاً، فإذا ذهبتُ الآنَ وقمتُ بالتبرعِ لا يمكنُني أن أنجحَ في امتحانِ الغدِ.

صعدتُ السلمَ بخطواتٍ مترددةٍ، وعندَما فتحتُ البابَ ازدادَ شعوري بالتعبِ والضيقِ، بالرغمِ منْ أنِّي في التاسعة عشر من عمري ولكنِّي لا أملكُ طاقةً لفعلِ أيِّ شيءٍ.

بدَّلتُ ثيابي فورَ دُخولي البيت، وذهبتُ إلى سريري دونَ أنْ أضيعَ الوقتَ، وأخذتُ المذياعَ لجانبي ووضعتُ أوَّلَ سماعةٍ في أذُني، مع أنَّ الشبكةَ ضعيفةٌ أحياناً فقدْ كنتُ معظمَ الوقتِ أنامُ على صوتِه.

فجأةً عادَ الإعلانُ نفسُه، كانَ الوقتُ يمشي ببطءٍ،

فأغلقتُ المذياعَ وخلدتُ إلى النومِ، وبدأتِ الكلَّماتُ ترددُ في ذِهني.

«هذهِ فرصةٌ، فالإنسانُ يجبُ أن يُعطيَ صدقةً عن دمِه؛ فبعملِ خيرٍ قدْ تُنقذُ ألفَ روحٍ.

ماذا لو كانَتْ حياةُ المريضِ متعلِّقةً بي الآنَ؟ وكانَ كلُّ شخصٍ يُفكِّرُ مثلي ولا أحد يذهبُ للتبرعِ بالدمِ؟!»

شعرتُ بداخلي للحظةٍ أنَّه يجبُ عليَّ الذهابُ، فلبستُ ثيابي بسرعةٍ، وكانَتِ الساعةُ الثانية بعدَ منتصفِ اللَّيلِ. نزلتُ السلمَ بعَجلٍ وكأنَّ المتعبَ الَّذي صعدَ السلمَ قبلَ قليلٍ لم يكنْ أنا، لم أعطِ أهميةً للكتابةِ المكتوبةِ على البابِ: «مِن فضلِكم أغلقُوا البابَ برفقٍ»، ونزلتُ بسرعةِ البرقِ ومشيتُ في الطَّريقِ بالسرعة ذاتِها.

ذهبتُ إلى موقفِ باصاتِ الجامعةِ ولم تكنْ تعملُ بعدُ، فنظرتُ إلى سائقِ السَّيارةِ الَّتي بجوارِ الموقفِ تماماً؛ وضعتُ يدي في جيبي فوجدتُ القدرَ الكافي من المالِ، ومن دونِ أدنَى ترددٍ توجَّهتُ إلى السَّيارةِ.

❁ ❁ ❁

عندَ بابِ مركزِ نقلِ الدمِ كانَ هُناكَ رجلٌ كبيرُ السنِّ يبكي؛ رجلٌ بلا أيِّ حيلةٍ، نظرَ إليَّ بحزنٍ، ودموعُه تلمعُ داخلَ عينيهِ؛ فقلتُ:

ـ لقد سمعتُ إعلانَ الدمِ، أردتُ إعطاءَ الدم.

حَضنني وهو يمسحُ دموعَه بلطفٍ:

ـ أخي، لقد أرسلَك اللهُ لي، جئتُ من بعيدٍ وبقيتُ وحيداً وعاجزاً ولا يمكنُني أنْ أجدَ دماً بهذهِ السهولةِ، أليستْ زمرةُ دمِك (O سلبي)؟

بعدَ أنْ قمتُ بفحصِ الدمِ مددتُ يدي؛ في لَحظَةِ التبرعِ، وعندَما كانَ الدمُ يسري من وريدي إلى الكيسِ كنتُ أشعرُ بأنَّ ضيقي يذهبُ معَه.

كنتُ قدْ أعطيتُ وحدةَ دمٍ واحدة، وكانَ بداخلي راحةٌ لا توصفُ، أردتُ الوقوفَ، ولكنَّ الممرِّضةَ قَالَتْ لي إنَّه يجبُ أنْ أرتاحَ قليلاً، لم يسمحُوا لي بالذهابِ، وبعدَما شعرتُ بنفسي بأنِّي أصبحتُ أفضلَ خرجتُ، والرَّجل نفسُه استقبلَني عندَ البابِ، كانَ ممتنّاً جداً لما فعلتُه وحَضَنني:

ـ أخي، لقدْ أنقذتَ حياةَ طِفلي!

وكانَتْ عيناهُ مليئةً بالدُّموعِ.

ـ اللهُ مَن أنقذَ حياةَ طفلِكَ، أنا فقطْ كنتُ وسيلةً.

تحرَّكتُ للذهابِ إلى البيتِ، ولكنَّ الرَّجلَ أمسكَ بِذراعي:

ـ أخي، العملُ الإنسانيُّ الَّذي قمتَ به لا يُنسَى، يبدو عليكَ أنَّكَ طالبٌ، خذْ هذهِ النقودَ واعتبرْها مصروفاً لكَ.

النُّقودُ الَّتي أخرجها الرَّجلُ كانَتْ تُعتبرُ نقود تقديرٍ، نظرتُ إليها وإلى تعابيرِ وجهِ الرَّجلِ؛ نصفُ ما أعطاني من نقودٍ كنتُ قدْ أعطيتُها للسيارةِ لتأتيَ بي إلى هنا، وسأعودُ بالباقي إلى المنزلِ، هكذا فكَّرتُ، ولكنَّ الرَّجلَ لم يكنْ يبدو عليه أنَّه يملكُ المالَ.

❁ ❁ ❁

في الحقيقةِ، الراحةُ الَّتي شعرتُ بها بداخلي لا يوجدُ أي قيمةٍ ماديةٍ يمكنُ أنْ توجدَها.

قلتُ:

ـ لا، لديكَ مريضٌ وأنتَ بحاجةِ النقودِ أكثر منِّي.

ولقد فعلتُ ما فعلتُه ليرضَى عني اللهُ، هلْ هُناكَ ثمنٌ أكبرُ من رضاءِ اللهِ؟!

استعجلتُ بخطواتي، وكانَت عينُ الرَّجلِ مليئةً أيضاً بالدموعِ، لم يكنْ يريدُني أنْ أذهبَ، وصاحَ بي:

ـ إذاً تعالَ إلى هذا المقهَى، سوف أُطعمُكَ شيئاً على الأقلِّ، لقد أعطيتَ دماً ومن المحتملِ أنَّ سكَّرَ دمِك قدِ انخفضَ.

ـ شكراً، ولكن يجبُ عليَّ الذهابُ فوراً، لديَّ امتحانٌ غداً.

عندَ اقترابي من البابِ الخارجيِّ كانَ هُناكَ ازدحامٌ أمامَهُ، فأسرعتُ من خطواتي وسحبتُ ذراعي من يدِه. آخرُ ما كنتُ أملكُه من النقودِ سأعطيها للسيارةِ وأذهبُ إلى المدينةِ.

عندَما أظهرتُ للسائقِ أنِّي أملكُ نقوداً أخذَني إلى الساحةِ، كانَتِ الطرقاتُ خاليةً، وصوتُ سيارةِ الإسعافِ يأتي من بعيدٍ.

بخطواتٍ ثقيلةٍ توجَّهتُ إلى المنحدرِ، ولم أكنْ قدِ اعتدتُ على حارتنا بعدُ.

كانَ هُناكَ ازدحامٌ في شارعِ منزلي، وكانَتْ أضواءُ سيارةِ الإسعافِ وسيارةِ الإطفاءِ تضيءُ المنطقةَ بالكاملِ، النَّاسُ ينتظرونَ في الشارعِ بلباسِ النومِ، اتَّجهتُ باتجاهِ منزلي متجاوزاً الازدحامَ.

يا للهولِ! البناءُ الَّذي فيه منزلي على الأرضِ! انصدمتُ وجمدتُ مكاني، رُبطَ لساني. كلُّ سكانِ البناءِ في الطَّريقِ، والكلُّ صامتٌ، كانَ فريقُ البحثِ يبحثُ عن شخصٍ بقيَ عالقاً تحتَ البناءِ، فأدخلَ أحدُهم رأسَه إلى الداخلِ وقَالَ:

ـ هل تسمعُ صوتي؟ إذا كنتَ تسمعُه اضربْ بأيِّ شيءٍ حولكَ لنعرفَ مكانَكَ.

لم يكنْ هُناكَ أيُّ صوتٍ، كانَ كلُّ شخصٍ ينتظرُ أنْ يَسمعَ صوتَ الشخصِ الَّذي تحتَ الأنقاضِ، نظرتُ حولي وقدْ كانَ جميعُ سكانِ البناءِ في الطَّريقِ.

مَن يمكنُ أنْ يَكونَ هذا الشخصُ الَّذي تحتَ

الأنقاضِ؟ فجأةً لاحظتُ وجودَ الشخصِ الَّذي يسكنُ مقابلَ شقَّتي فوضعتُ يدي على كَتفِه وسألتُه:

ـ ماذا حصلَ؟

تفاجأ الرَّجلُ، وفتحَ عينيهِ كالحجرِ.

ـ ياه!!! الشابُّ هنا!

❁ ❁ ❁

بلحظةٍ ذهبَ الصمتُ، والكلُّ توجَّهَ إليَّ. تفاجأتُ، وبدأَ الكلُّ يحضنُني، وشبابُ الحيِّ أيضاً أَخذوا يمسكونَني من كتفي بحبٍّ.

دَهشتي زادتْ ولم أفهمْ شيئاً. توقَّفتْ عملياتُ البحثِ وارتسمتِ ابتسامةٌ على الوجوهِ.

ما فهمتُه حينَها أنَّ الكلَّ قدْ خرجَ سالماً مما حصلَ، وظنُّوا أنَّني تحتَ الأنقاضِ. أمسكَني المسؤولُ عنِ البناءِ بيدي وحَضنني وقَالَ:

ـ هلْ كانَ أنتَ مَن أغلقَ البابَ بقوةٍ عندَ منتصفِ اللَّيلِ؟

شعرتُ بالذَّنبِ عندَها، ولكن لم يتبقَّ شيءٌ، لا بناء ولا بيت، فلا داعٍ لإخفاءِ ما فعلتُه، وبجوابٍ خجولٍ:

ـ نعم، كانَ أنا! لقدْ كانَتْ حياةُ طفلٍ في خطرٍ، وعندَ سماعي لإعلانِ تبرُّعِ الدمِ ذهبتُ إلى مشفَى الفارابي مسرعاً لأتبرَّعَ.

اقتربَ مني المسؤولُ وحضنني بقوةٍ وقبَّلني من جَبيني، وصفَّقَ لي الجميعُ، كنتُ مازلْتُ أحاولُ فهمَ ما يجري.

ـ لم يكونوا مخطئينَ حينَ قالوا: «بفعلِ خيرٍ واحدٍ تنقذُ ألفَ روحٍ».

عندَ طرقِكَ البابَ بهذهِ القوةِ استيقظتُ أنا واستيقظَ الجميعُ أيضاً، انظرْ إلى نعمةِ اللهِ! بعدَ طرقِ البابِ توجَّهَ كلُّ شخصٍ إلى بابِ بيتهِ وفي لحظتِها بدأَ البناءُ بالانهيارِ.

لو لمْ نكنْ قدِ استيقظْنا ـ لا قَدَّرَ اللهُ ـ كنَّا قدْ أصبحْنا والبناءَ واحداً على الأرضِ.

ـ نعم، فعلاً! بفعلِ خيرٍ تُنقذُ ألفَ روحٍ.

في الحقيقةِ لستُ أنا مَن أنقذَ حياةَ الطفلِ، هو مَن أنقذَ حَياتي وحياةَ هؤلاءِ الناسِ.

عِبْرَةُ الـمَوْتِ

عندَما تغادرُ الدُّنيا لنْ يذهبَ معكَ شيءٌ، الأصدقاءُ يأتونَ ولكن ليأخذوكَ إلى القبرِ. في يومِ موتِكَ يقولُ لكَ الصديقُ: «أنا صديقُكَ إلى هنا فقط»، لكن من بَعدِ ذَلكَ أعمالُ الإنسانِ في الدُّنيا هي الصديقُ الوحيدُ الَّذي سيساعدُه.

لهذا، أفضلُ صديقٍ لكَ هو عملُ الخيرِ، والموتُ الناتجُ عنْ مرض كصهيلِ حصانٍ مستعجلٍ يقفُ عندَ البابِ.

إنَّ معرفةَ اقترابِ الموتِ قدْ تزيدُ من لذةِ الحياةِ، وكلُّ نفَسٍ تأخذُه له طعمٌ كالغذاءِ تماماً.

الأصدقاءُ الذينَ يُفكِّرُونَ بإيجابيةٍ تجاهَ فكرةِ الموتِ يكونونَ كأداةِ دفاعٍ، وفي الحقيقةِ عندَما يقولونَ لكَ كلَّماتٍ لترفعَ من معنوياتكَ يكونُ في داخلِهم حزنٌ شديدٌ،

لا يرونَ الضوءَ الملونَ في عينيكَ ولا حتى يستطيعونَ رؤيتَه.

يمدُّ رأسَه لطرفِ النافذةِ، ويتنفَّسُ بعمقِ الهواءِ النَّقيِّ الداخلِ منها، ولا أحد يُلاحظُ خطوطَ السعادةِ المرسومةَ على وجههِ، وهذا يعني أنَّ الإنسانَ يشعرُ بالحياةِ أكثرَ وهو على ساحلِ الحياةِ. وكأَنَّك واقفٌ على ساحلِ البحرِ وقدمُكَ في الماءِ تشعرُ ببرودتِها.

❁ ❁ ❁

عندَ أوَّلِ معرفَتي به استغربتُ كثيراً، فقدْ كانَ إنساناً شارداً دوماً وكأنَّ هُناكَ شيئاً ما يزعجُه، لا ينظرُ إلى عيونِ النَّاسِ عندَ حديثِهم معهُ في الدُّكانِ، أمَّا الآنَ فهوَ دوماً ينظرُ إليهم.

رجلٌ لا يهمُّه شيءٌ سوى كسب النقودِ، فقدْ باعَني فرناً وتعطَّلَ قبلَ أنْ يَنتهيَ تقسيطُه. وكأَنَّه لمْ يكنْ الشخص ذاتُه الَّذي لم يخرجْ خارجَ بابِ دكانِه عندَما مرَّتْ جنازةُ الحلاقِ جمال وتصرَّفَ على أنَّه لديهِ الكثيرُ من الأعمالِ.

الموتُ تحتَ اسمِ السرطانِ. قدماهُ تلمسُ الماءَ، ما قيمةُ الحياةِ الآنَ؟

إذا فكَّرْنا أنَّ الحياةَ عبارةٌ عن لعبةٍ ممتعةٍ فنحنُ مخطئونَ، «ربَّما تظنُّون الآنَ لأنَّ الموتَ قدْ جاءَني أقولُ ما أقولُه». الموتُ ليسَ هزيمة، بلْ هوَ طموحٌ.

الموتُ قادمٌ لا محالةَ، أنا أهزمُ نفسي، أفكِّرُ أنَّ اللهَ ربَّما قدْ أعطاني مهلةً.

الكلَّماتُ تأتي من داخلي كأَنَّني سمعتُها منْ قبلُ في مكانٍ ما، وكأَنَّ في كلِّ كلمةٍ اقتباسٌ من كلامِ وليٍّ، كلَّماتٌ حكيمةٌ وعميقةُ المَعنى، والحقائقُ المتعلقةُ بالموتِ؛ كلَّماتٌ من فمِ إنسانٍ عاشَ على ساحلِ الحياةِ ولكنَّهُ عاشَ طوالَ حياتِه دونَ التَّفكيرِ بالموتِ. بالتَّأكيدِ يوجدُ حكمةٌ مِن هذا!

بصوتٍ أجشّ استمريتُ دونَ توقُّفٍ: «لا أعلمُ إذا بقيَ شخصٌ لم أطلبْ مسامحتَه، من فضلكم أنتُم أيضاً سامِحوني! إذا كان لديكمْ شيءٌ اتِّجاهي لم تسامحوني لأجْلِهِ فاطْلبوهُ منِّي الآنَ» عندَ قولِنا هذهِ الجملةِ يقولونَ: «كنتَ تَقولُ عنَّا (متعصبين)».

ثمَّ قَالَ:

ـ نعم، هكذا كانَ، سامحوني.

وكأَنَّه أرادَ أنْ يَنهيَ الحديثَ، ثمَّ استمرَّ بحديثٍ صوفيٍّ كانَ له صيتُه منذُ زمنٍ بعيدٍ قائلاً:

ـ وقعَ ذئبٌ على شجرةٍ؛ كانَ يجبُ إزالتُها وحرقُها، وجاءَ المساءُ والعمرُ على وشكِ السُّقوطِ في قعرِ الشَّمسِ.

❁ ❁ ❁

شعرتُ وكأني أعرفُ ذلكَ، التفكيرُ بالموتِ أصبحَ عبرة لي، ومنذُ أنْ فهمت أنَّ نفسي غاليةٌ تفطنتُ أكثر لأهميَّتها. أصبحتُ أعِي أنَّه يجبُ شكرُ اللهِ عندَ الشَّهيقِ وعندَ الزفيرِ.

أخذَ نفَساً عميقاً من جديدٍ ونظرَ منَ النافذةِ إلى بعيدٍ، ثمَّ عادَ إلى كلماتِه الحكيمةِ على الساحلِ:

ـ أيُّها الأصدقاءُ! هُناكَ قولٌ عن أسرارِ الحقيقةِ، عندَما نَرى الموتَ رفيقَنا سنعودُ إلى حياتِنا، يجبُ أنْ تعودَ إلى نفسِكَ، فقطْ عندَ الموتِ يكونُ العجزُ، فاللهُ ملأَ حياتَنا بالحلولِ، طالَما لمْ نفتحِ النافذةَ فلا يوجدُ حلٌّ! هذا واقعٌ، من دونِ جهدٍ لنْ تحصلَ على شيءٍ، ومحبة اللهِ منَ

القلبِ والروحِ وأنْ تعتبرَ أنَّه لا وجود لشيءٍ آخرَ في الحياةِ.

الموتُ الَّذي رأَى يوسف وقدْ ضحَّى بروحِه حتَّى لو رأوهُ كذئبٍ فطريقهُ ثابت! يجبُ أنْ نَرى الموتَ.

أصدقائي، الموتُ امتحانٌ لكلِّ شخصٍ، العدوُّ عدوٌّ والصديقُ صديقٌ، فليعلم الجميعُ أنَّ الموتَ صديقُك.

❁ ❁ ❁

بعدَ أشهرٍ رأيتُهُ في محطَّةِ الباصِ، رآني وتبسمَ، تفاجأتُ، وقدْ كانَ يبدو سليماً، جاءَ وحَضنني. قلتُ له:

ـ ما شاءَ اللهُ!.

ـ مِن غيرِ زيادةٍ نفَسٍ ولا نقصانٍ؛ لم يقطعْ نفَسي بعد.

ـ إلى أينَ تذهبُ؟

ـ إلى زيارةِ مولانا.

ـ قلتُ مازحاً:

ـ انتبهْ! سيقولونَ عنكَ متعصِّب.

تبسَّمَ وفهمَ ما أردتُ قولهُ، ثمَّ قَالَ:

ـ ذهبتُ إلى الجامعِ وطلبتُ السَّماحَ مِن الجميعِ عنْ خطأٍ ارتكبتهُ منذُ زمنٍ.

ـ فليفتحِ اللهُ طريقَك. من القلبِ سلَّمَ على السلطانِ ولا تنسَ أنْ تدعيَ لنا.

ـ لنْ أنسى.

عندَما ابتعدَ نظرتُ إليهِ منَ الخلفِ، ثمَّ جاءَ إلى جانِبي شخصٌ لم أرهُ منذُ زمنٍ. وقَالَ:

ـ لقدْ زادَ تعصُّبه، هكَذا يُقَالَ.

كانتْ علاماتُ وجههِ غريبةً، نظرتُ إليهِ بقسوةٍ، توقفَ قائلاً:

ـ لماذا تنظرُ إليَّ هَكذا؟

ـ لأنَّك تبدو سَليماً وقويّاً. كمْ يليقُ بكَ المرضُ!

سألَ وهوَ مندهشٌ:

ـ لماذا؟

ـ الرَّجلُ الَّذي كنتَ تنتقدُه قبلَ قليلٍ كانَ يُفكِّرُ مثلكَ تماماً.

أَخي الكَبِيرُ

أَخي العزيزَ، اليومَ هو عيدُ ميلادِكَ! الخريفُ يهمسُ بقدومِ الشِّتاءِ؛ عندَ سقوطِ الأوراقِ الصَّفراءِ وعندَ وقوفِ الأشجارِ بحزنٍ وهمٍّ.

في منزلِنا أيضاً كانَ هُناكَ حزنٌ غريبٌ، كنتُ حزيناً ذاكَ اليوم، وددتُ الهروبَ إلى مكانٍ وأَلْتَجِئُ إليه ولكن لم يحصلْ.

ذهبتُ واستلقيتُ على حقولِ القمحِ أمامَ منزلِنا ناظراً إليها، وإلى الأعشابِ الَّتي على التلَّةِ، والطَّريق من مَنزلنا إلى البحيرةِ كانَ فيهِ نهرٌ أخضرُ مطلّاً على حقولِ المحصولِ. الآنَ كلُّ شيءٍ ذبل كروحي.

كانَ أخي مَن يُصغي لي، كانَ مُصاحباً لي. عندَ موسمِ قطفِ المحصولِ وعندَما تبدأُ الأوراقُ بالاصفرارِ كنتُ

أتسلَّقُ بعيداً بحزنٍ مع ذهابِه، وأنا أسمعُ صوتَ القطارِ مِن بعيدٍ كنتُ أغنِّي بِداخلي أغتياتٍ حزينةً.

هذا القطارُ يذهبُ إلى مكانِ أخي، وكنتُ أنظرُ بحماسٍ إلى كلِّ سيارةٍ تأتي عندَ بدايةِ كلِّ صيفٍ على أملِ أنْ يَكونَ بِداخلِها.

❁ ❁ ❁

بعدَ موسم قطفِ المحصولِ، اختفَى أخي بحزنٍ وبيدِه حقيبةٌ خشبيةٌ، ذهبَتْ معه رائحةُ الوردِ، كانتْ رائحتُه دوماً ورد.

عندَما كانَ يفتحُ حقيبتَه تلكَ كانتْ تنتشرُ تلكَ الرَّائحةُ الطَّيبةُ في الأجواءِ، كانَ يحبُّ الوردَ كثيراً، وكانَ يضعُ في كتبِه ورداً مجفَّفاً.

في داخلِ حقيبتِه كانَ يجمعُ بطاقات بريديةً لجونيت أركن؛ منَ الواضحِ أنَّه كانَ يحبُّه كثيراً، وكانَ يحبُّ كارا مراد، وباتال غازي؛ كانَ لديهِ صورٌ لبعضِ أدوارِهم.

كانَ يحبُّ ركوبَ الخيلِ مثل كارا مراد، وكانَ يحلمُ أنْ يَكونَ مثل باتال في تصرُّفِه وحكمتِه، كانَ إحساسُه

كلاعبِ كرةِ قدم فاقد لإحدى قدَميهِ، فمرضُه في سنٍّ مبكرةٍ جعلهُ يمشي في قبضةِ القدرِ، وحزنُه لعدمِ قدرتهِ على الركضِ، وشوقه للمشي، ولكنَّه لم يشتكِ من مرضِه أبداً، فقطْ كانَ حزيناً، وكانَ فقطْ يستاءُ لابتساماتِ النَّاسِ المصطنعةِ عندَ رؤيتِه.

في الرَّبيعِ؛ عندَما حضَّرَ حقيبتَه للذهابِ أخذَ معهُ حزنَه وألمَه وآمالَه، وحلَّ مكانَه فراغٌ يستحيلُ وصفهُ، عندَ ذهابهِ بكيتُ كثيراً.

كانتْ تمضي أيام ولم يكنْ أحد في البيتِ يفتح فمَه ويتحدثُ بأيِّ شيءٍ، لهذا لا أحبُّ الحقائبَ وبالأخصِّ الخشبيةِ.

كانَ كلَّ مساءٍ يحبُّ الاستماعَ إلى المذياعِ، فقطْ ليستمعَ إلى الأغاني الَّتي يميلُ إلى نبرةِ صوتِها، ولكنَّ قليلاً ما تجدُ مثل هذهِ الأغاني في المحطَّاتِ لذلكَ لم نكنْ نستمعُ كثيراً.

عندَما يكونُ في البيتِ كانَ للصمتِ معنى، فقطْ عندَما أدخلُ أنا أفسدُه؛ فقدْ كنَّا نتعاركُ ونمزحُ، حتَّى كنَّا نتصارعُ.

كانتْ أمِّي تَبكي دَوماً عندَ مَجيئِه وعندَ ذهابِه، كانتْ تتألَّمُ لعدمِ قدرةِ ابنها ذي الثَّماني عشرة عاماً على المشي.

جسدٌ يتحسَّرُ على الدِّراسةِ، بارد، رطب، وأعزَب، مرضٌ لا أمانَ لهُ.

❁ ❁ ❁

كنتُ أنزعجُ كثيراً عندَما أرَى دموعَ أمِّي وأخي، لقدْ عشتُ همّاً لا يوصفُ، لمْ أكنْ أعلمُ ما هوَ المرض، ما أعلمُه فقطْ هو قول الأطباءِ أنَّ أخي بعدَ سنوات لنْ يتحسَّنَ أبداً.

في ذلكَ اليومِ كانَ هُناكَ رائحةُ وردٍ، كنتُ مع أخي، ولكن للأسفِ كانَ المكانُ في المُشفى، غرفة المشْفى بالنسبةِ لي كانتْ كبرجِ وحش عملاق أسود القلبِ، وأخي كانَ الأميرَ سيءَ الحظِّ، في كلِّ مرَّةٍ وعندَ أوَّلِ دخول لنا تبدأُ الدموعُ.

مثلَما كنتُ شاهداً على ما عِشناهُ من سعادةٍ وما ارتدَيناهُ مِن ألمٍ، ولكن ليسَ كالبقيةِ؛ لمْ أكنْ أعلمُ ما هو الألم

العميق، الشوق، الأسرار، درجة الحزنِ، والآمال كلها لمْ أكنْ مُدركاً لَها.

الحياة مؤلِمة حزينة، ولكن لا بُدَّ أنْ تملكَ منها المفتاح السِّحري للعيشِ فيها.

الآنَ صوتُ القطارِ، حقائبُ السِّفرِ الخشبيةُ، أوراقُ الخريفِ وحتَّى رائحة الوردِ كلها تذكِّرني بحزنٍ، نزلت قطراتُ دموعٍ مِن عيني وكأنَّ داخلَ عَيني سيل سينفجرُ، لقدْ عرفت الموتَ مِن أغنيةٍ حزينةٍ في المذياعِ.

برعم وردةٍ في حديقةِ المشفى، في يومٍ ربيعيٍّ، جميعها طويلةٌ ومستعدةٌ للتَّفتيحِ.

لقدْ عادَ الرَّبيعُ مِن جديدٍ، وأصابِعي كساقِ وردةٍ، في كلِّ جانبٍ منها رائحة أخي.

اليوم عيدُ ميلادي، زادَ عُمري قَليلاً، اليومُ أصبحتُ بعمرِ أخي.

المُنْدَسُّ

الموتُ قدْ أخذَ الروحَ وذهبَ، إلى الآنَ أنا في حالةٍ صدمةٍ، لقدْ أعطاني اللهُ فرصةً في حياتي الجديدة للتَّجديفِ باتِّجاهِ الأبوابِ المفتوحةِ في طريقي، نسبتها للحقِّ، فكرتُ بعمقٍ وأنا أنظرُ إلى إسطنبول من على تلةٍ تشاملجا، وأجلسُ في فنائها.

وصلتُ إلى إنسانيَّتي، وقررتُ تنظيمَ حياتي من جديدٍ، وتحرَّكتُ باتِّجاهِ البابِ، وعندَ وُصولي لِميناءِ أسكودار لاحظتُ وجودَ ازدحامٍ خفيفٍ. بعدَ الآنَ لم يكنْ منَ المحتملِ أنْ أقفَ بعيداً دونَ أيِّ حراكٍ.

اتَّجهتُ نحوَ الازدحامِ، كانَ هُناكَ شابٌّ أجنبيٌّ طويلٌ ذو شعرٍ أشقرَ يوزِّعُ كتابَ الإنجيلِ على النَّاسِ مِنْ جهةٍ ويحاولُ قولَ شيءٍ بتركية غير مفهومةٍ من جهةٍ أُخرى.

هُناكَ ضعفٌ عندَ بعضِ النَّاسِ تِجاهَ أيِّ شيءٍ يوزَّعُ

بالمجانِ، وكانَ هُناكَ من أزعجَه هذا الموقف؛ فدخلَ أحدُهم وسطَ الازدحامِ وقَالَ مظهراً عدمَ رضاهُ عمَّا يجري:

ـ ماذا يجري هنا، هل نَحنُ في بلد المسيحيِّين؟ هل يُباعُ هكذا شيءٌ في حيِّ المسلمين؟

كانَ في الساحةِ أيضاً بعضُ القنواتِ الأجنبيةِ لتغطيةِ الحدثِ.

❁ ❁ ❁

أن يأتيَ شخصٌ إلى مركزِ إسطنبول ويوزِّعَ الإنجيلَ على الناس؛ كانَ تصرفٌ يتطلَّبُ شجاعةً حقاً. هذا الرَّجلُ إمَّا أنه أخذَ الشجاعةَ من تسامحِ الأتراكِ وإما أنَّها مؤامرَةٌ.

وكلَّما زادَ الازدحامُ زادتْ معه الأصواتُ المعارضةُ، وفجأةً ومن وسطِ الحشد خرجَ شابٌّ طويلٌ أسمرُ اللَّونِ بدأَ بالصراخِ على الأجنبيِّ، فتحرَّك البعضُ من الخلف للوقوفِ بجانبِ الأجنبي ومساندتِه.

للحظةٍ احتدَّتِ الأجواءُ، وبرأيي لقد كانتْ مكيدةً، والرَّجلُ الأسمرُ أيضاً جزءٌ منها، كانَ يحقُّ للجميع أن يُظهرَ رد فعله، ولكن هل بهذا الشكلِ؟

نظرتُ إلى الأشخاصِ الذين يرمون بأنفسهم في وسطِ الازدحامِ بشكٍّ، وكنتُ أظنُّ أنَّ الأجنبيَّ كانَ جزءاً من هذا التحريضِ أيضاً.

كانَ البعضُ يحاولُ الابتعادَ عنِ المشكلةِ والبعضُ الآخرُ يقتربُ أكثر بفضولٍ ليرى ما الَّذي يحصلُ، والصحفيون أيضاً كانوا يحاولون تغطيةَ الحديثِ عن قربٍ، والبعضُ يلتقطُ الصورَ من هاتفِه بعيونٍ ضاحكةٍ.

❁ ❁ ❁

خلال ثوانٍ وبعدَ الدهشةِ أصبحتُ في وسط الازدحامِ، هنا أخذتُ حصَّتي من الضربِ والصَّفعاتِ، من جهةٍ كنتُ أصرخُ ومن جهةٍ أخرى كنتُ أحاولُ الخروجَ جاهداً.

صراخي أعطاني نتيجةً، أنا وهو كلانا كانَ ينزفُ أنفُه، لقد أخذنا نصيبنا من هذا الحدثِ. ومعَ سماعِ صفاراتِ إنذارِ الشرطةِ كانَ قدْ بقي معنا عددٌ من الأشخاصِ، وخلالَ ساعةٍ كانَ الجميعُ قدِ ابتعدَ بسرعةٍ.

عندَما وصلتِ الشرطةُ لم يكنْ في الساحةِ سوى نَحنُ

والصحفيين، وعلمَتِ الشرطةُ ما جرى منَ الصحفيين، ثمَّ أُخذنا إلى السجنِ، ووضعونا في غرفةٍ.

أدْلَينا بشهادتنا، وفهمتُ من أسئلةِ الشرطةِ لي أنهم ظنُّوا أني مندسٌّ أيضاً، ومهما حاولتُ أنْ أوضحَ نيتي وأشرحَ كيفَ أنني كنتُ أساعدُه فقطْ لم يكونوا ليصدِّقوا شيئاً من كلامي.

وبالرغمِ من المعلوماتِ على هويتي الَّتي تظهرُ أني تركيُّ الجنسيةِ إلا أنهم ظنوا بي أنني مندسٌّ محليٌّ، ربَّما كانَ هذا بسببِ الأدلةِ الَّتي أخذَها الصحفيون، وهي الَّتي أثرتْ عليهم.

بينَما كنتُ أنتظرُ إطلاقَ سراحي تمَّ اعتقالي ووضعي في المعتقلِ. لم أكن أصدِّقُ ما حدثَ.

قبلَ قليلٍ كنتُ أشاهدُ مضيقَ البوسفور من على تلةِ تشاملجا، والآنَ أنا في السجنِ، كنتُ أواسي نفسي قائلاً:

ـ من المؤكَّدِ هُناكَ حكمةٌ مما يحدثُ.

❁ ❁ ❁

لم يكن الأجنبيُّ يتفوَّهُ بأيِّ كلمةٍ، بقيتْ عيناهُ على الأرضِ لا تتحرَّكُ. في الحقيقةِ كنتُ غاضباً منه أيضاً مثل غضبي على كلِّ ما حصلَ.

جلستُ بعيداً عنه، استلقيتُ على المقعدِ الخشبيِّ، وعندَما استيقظتُ كانَ قدِ انتهى وقتُ الغداءِ.

كانَ الشابُّ مازال جالساً دونَ أنْ يَتفوَّهَ بأيِّ كلمةٍ، ناديتُ للشرطيِّ ويدي تضربُ ببعضهما، قلتُ له:

ـ عليَّ الذهاب إلى الحمامِ.

توضأتُ ثمَّ سألتُ الشرطيَّ:

ـ هل هُناكَ أي شيءٍ يمكنُ أنْ أصلِّيَ عليه مثل كرتونٍ أو حتَّى مجلةٍ؟

نظرَ إليَّ الشرطيُّ بغرابةٍ وقَالَ:

ـ حسناً! أنتَ ادخلْ إلى الداخلِ الآنَ، ثمَّ نرى بعدَها.

ثمَّ جاءَ وبيدِه قطعةُ كرتون مدَّها لي وأشارَ إلى القبلةِ وابتعدَ، مدَّدتُها على الأرضِ وصليتُ، وعندَما انتهيتُ من الصلاة لاحظتُ أنَّ الأجنبيَّ ينظرُ إليَّ بغرابةٍ، يمكنُ أنه يُفكِّرُ بنفسهِ على اعتبارِ أنني مسلماً لماذا ساعدتُه.

عدتُ لأستلقيَ على المقعدِ، وبعدَ قليلٍ اقتربَ مني وسألني بالتُّركيَّةِ:

ـ هل أنتَ مسلمٌ؟

ـ الحمدُ للهِ، مسلمٌ.

ـ شكراً لمساعدتِك، لقد تضرَّرتَ بسببي.

ـ غير مهمٍّ، فعلتُ ما كانَ يجبُ عليَّ فعلهُ.

ـ لماذا توجَّبَ عليكَ مساعدَتي؟

ـ لأنني إنسانٌ.

لقد فهمتُ من تعابيرِ وجههِ تقديرَه لي، كانَ صميميّاً بالحديثِ معي، وفي هذهِ المرَّةِ بدأتُ أنا بطرحِ الأسئلةِ:

ـ في بلدِنا هُناكَ الملايينُ من الرسلِ الذينَ يقومون بهذه الفعالياتِ ولكن كانوا يفعلونها سرّاً، أنتَ لماذا تجرأتَ على هكذا تصرفٍ، أليس ما فعلتَه تجريحاً للمجتمعِ؟

ـ لقد قيلَ لي أن الأتراكَ شعبٌ متقبلٌ للآخرِ طوالَ التاريخِ، لقد عاشوا مع المسيحيين بتسامحٍ.

ـ صحيحٌ ما قدْ قيلَ لك، ولكنَّ مجتمعَنا لا يحبُّ التحريضَ على الفتنةِ.

ـ هل تظنُّ بي أني مندسٌّ أيضاً؟

ـ في الحقيقة أنا أيضاً ظننتُ ذلكَ.

ـ حسناً، لماذا ساعدتني إذاً؟

ـ حتَّى لا تتضرَّرُ إنسانيتُنا، حتَّى لا نُخِلَّ بنظرةِ مجتمعِنا، وأيضاً كنتُ أظنُّ أنَّ ما حدثَ كلُّه كانَ مخطَّطاً له، والذين هجموا عليكَ وعليَّ. كنتُ أفكِّرُ أنهم كانوا جزءاً من هذهِ اللعبةِ.

ـ كيفَ؟

ـ هُناكَ بعضُ النَّاسِ قَدِموا من الغربِ، يقومون بمسيراتٍ بغرضِ الفتنةِ. وبعدَ أنْ يَحصلَ ما يريدون يقومون بتصويرِ الهجومِ لتشويهِ صورةِ الشَّعبِ التُّركيِّ للخارجِ واستبعادِه.

بالإضافةِ إلى أن المسيحيين لا يتقبلون هذهِ الفعاليات،أفكر أنها سياسة غربية خُطط لها لا غير، لأن المسيراتِ التي قام بها المسيحيون لسنوات لم تأتِ بأي نتيجة،فالمسلم لا يمكن أن يصبح مسيحيّاً.

قَالَ مندهشاً:

ـ لكني لم أفكر بهذه الطَّريقةِ!

ـ ولكن نَحنُ هكذا نفكِّرُ. أنت عندَما كنتَ توزعُ الإنجيلَ على النَّاسِ هل كنتَ تفكِّرُ أنهم سيصبحون مسيحيين؟!

ـ نَحنُ نعرفُ أن الإنجيلَ ليسَ كتاباً واحداً، ولكن كل كتبِ الإنجيلِ تتكلَّمُ عن عيسى نفسِه وعن نفسِ المعبودِ.

ـ ولكنَّ عيسى ذُكرَ في كتابنا، والإلهُ أيضاً. الفرقُ بينَنا أنَّنا نقولُ عن الإلـه «الله»، وفي الحقيقةِ أنتمْ أيضاً كنتُم تقولون «الله»، ولكنَّكم تغيَّرتمْ.

ـ ماذا تعني؟

ـ كمسيحيٍّ لا بُدَّ أنك شاهدت فيلم «الشغف» كانَ الفيلمُ باللغة الآرامية؛ لغةِ سيدنا عيسى عليه السلام الأصليةِ. في الفيلمِ لم يكنْ يقولُ «الإلهُ» بل كانَ يقولُ «الله»، يعني كما نقولُ نحنُ.

ـ يااااه! لمْ ألاحظْ ذلكَ من قبلُ، ولكني لاحظتُ شيئاً، عندَما يذكر اسمُ عيسى ماذا كنتَ تَقولُ، ماذا يعني هذا؟

ـ هل تقصدُ عليه السلام؟ هذا إلقاءُ السلامِ عليهِ، نَحنُ المسلمون نقولُها له ولكافةِ الرسلِ.

كانَ واضحاً أنه لا يفهمُ شيئاً عن الإسلامِ لأنه كانَ يصغي بدقَّةٍ، ولا يخفي دهشتَه بينَ الحينِ والآخرِ حتَّى إنه يُفكِّرُ أحياناً أنَّني ألومُه، كانَ يحاولُ أن يُظهرَ عدمَ فهمِه لبعضِ ما أقولُه بتحريكِ رأسِه يميناً ويساراً.

ثمَّ قَالَ:

ـ آسفٌ لأنَّني فُهمتُ بشكلٍ خاطئٍ، لو كنتُ أعلمُ أنَّ النَّاسَ هكذا يُفكِّرُونَ لما قمتُ بفعلٍ كهذا.

كانَ واضحاً من تصرُّفاتِهِ أنه لم يردِ الأذيةَ.

ـ حسناً! هلْ أنتَ تابعٌ لأيِّ مؤسسةٍ؟ فربَّما قدْ تكونُ جزءاً من مكيدةٍ من دونِ علمِك.

هل هُناكَ احتمالٌ أنهم استخدَموكَ لغرضِهم عندَما علموا أنكَ إنسانٌ طيبٌ وصاحبُ دينٍ؟

كانَ ردُّ فعلِه مفاجئاً.

ـ لا! مستحيلٌ.

يبدُو أنه غضبَ وابتعدَ، عادتْ عيناه للأرضِ، وسكَتَ.

❁ ❁ ❁

بَقينا هَكذا لمدةٍ، ثمَّ جاءَ شرطيٌّ عندَ البابِ وسألَ إذا

كنَّا نحتاجُ إلى شيءٍ، فسألتُ الشرطيَّ عنِ الساعةِ، وقفتُ وأخذتُ قطعةَ الكرتونِ الَّتي أعطاني إيَّاها قبلَ قليلٍ وأدَّيتُ صلاةَ العصرِ.

عندَ تسليمي كانَ الشابُّ الأجنبيُّ ينظرُ إليَّ من جديدٍ، وكانَ واضحاً عليه الدهشةُ. اقتربتُ لجانبه:

ـ بالمناسبةِ، ما اسمُكَ؟

قَالَ بأدبٍ:

ـ ميهايل.

ـ مِن أيِّ بلدٍ جئتَ؟

ـ مِن أوكرانيا.

ـ في الغالبِ المبعوثون هم من الغربِ،لم أتوقَّعْ أنْ يَأتيَ مبعوثٌ من أوكرانيا الَّتي تخلَّصتْ من الشُّيوعيةِ من زمنٍ ليس ببعيدٍ. كانَ على طرفِ شفاهِهِ غمزةٌ خفيفةٌ، لم يبتسمْ، قَالَ:

ـ أنتَ مختلفٌ، يصعبُ تفسيرُكَ.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّكَ تعرفُ دينَكَ جيداً وتعيشُهُ.

هذه المرَّةُ أصبحَ دَوري لأضحكَ، أينَ انتَبهَ لذلكَ في كلامي حتَّى استنتجَ ما قَالَهُ؟

❁ ❁ ❁

فكَّرتُ حينَها بدل أن نلومَ المبعوثين فلنَنْظُر إلى أنفسِنا أولاً. أردتُ أن أُكملَ حديثَنا فسألتُه مُتَمِّماً للحديثِ:

ـ لماذا أوكرانيا؟

لم أكنْ قدْ أخذتُ جوابي بعد، فأوكرانيا من مدةٍ قريبةٍ كانَ فيها الدينُ ممنوعٌ، فهي دولةٌ ذاتُ سياسةٍ مُلحدةٍ.

في الحقيقةِ استغربتُ خروج شخصٍ مسيحيٍّ محافظٍ على دينهِ منها، ربَّما الحرارةُ الَّتي بداخلي قدْ أدركتْ هذا الشيءَ، ولكن مهما كانَ السببُ كانَ يجبُ أن أستفسرَ عن هذا الشخصِ، فبدأَ يخبرُني عن قصتهِ:

ـ عندَما ولدتُ في أوكرانيا ـ رغمَ قوانينِ الشيوعيةِ ـ قامَ أبي بمعموديَّتي سرّاً، وبالرغمِ من كونِها ممنوعة إلَّا أننا استمرَّينا على عاداتِنا وتقاليدِنا المسيحيةِ، وتعلمتُ الإيمانَ باللهِ منْ أمِّي.

لم يكنْ يهمُّني شيءٌ سوى أنْ أحصلَ على تعليمٍ جيدٍ،

وعندَما كبرتُ وأصبحتُ شاباً كانَ في رأسي العديدُ من الأسئلةِ الَّتي لم أحصلْ على جوابِها، عنِ الحياةِ، الموتِ، الجنةِ، جهنمَ، وحتَّى عن عيسى.

كثير من الأسئلةِ الَّتي أسألُها لنفسي وكأنَّ معنى الحياةِ يتشكلُ في عقلي. كنتُ أدورُ في فراغٍ، الوحدةُ والجهلُ اللَّذان كنتُ أعيشُهما بداخلي كانَ من الصعب وصفُهما، وللهروبِ منَ المجهولِ تحوَّلتُ إلى شخصٍ فاسقٍ من غيرِ معنى، ولكنِّي لم أتخلَّصْ من الأسئلةِ الَّتي بداخلي.

❁ ❁ ❁

عائلتي أدركتْ سوءَ حالتي وأرسلتْني إلى طبيبٍ نفسيٍّ ولكن لم يجدْ لي حلاً، وحتَّى أتخلَّصَ من المجهولِ كانَ يجبُ عليَّ الذهابُ إلى بلدٍ آخرَ، وقررتُ الهربَ من السوءِ الَّذي بداخلي، فذهبتُ إلى بريطانيا من أجلِ دراستي العليا، ولكنَّ السوادَ الَّذي بداخلي ازدادَ وحبسني بداخلهِ، ومهما قرأتُ كتباً لم يكنْ ليُفيدَني بشيءٍ.

بدأتُ بالدخولِ إلى مواقعِ الإنترنت المتعلقةِ بالمسيحيين، وبدأتُ أتراسلُ مع راهبٍ أمريكيٍّ، وكانتْ

لقاءاتي معه من أجلِ إضاءةِ جزءٍ من السَّوداويةِ الَّتي كانتْ بي. وكانَ يطلبُ مني باستمرارٍ أن أدعوَ لعيسَى.

ـ لماذا أرادَ منكَ الدعاءَ لعيسى عليه السلام وليسَ للهِ؟

ـ لأنَّهُ هوَ مَن أنقذَنا، لأنَّهُ هوَ...

أخذتُ الكلمةَ من فمهِ قبلَ أن يكملَ:

ـ لأنهُ هوَ ابنُ اللهِ. أعلمُ هذا الاعتقادَ الَّذي عندَكم، وفي الحقيقةِ لا يمكنُ أن أعطيَكَ تفسيراً يجعلُكَ تؤمنُ بِذَلكَ.

ـ لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يَفهمَ ذلكَ. عن طريقِ معرفَتي بالراهبِ أصبحتُ معارضاً، ومن هُناكَ ذهبتُ إلى أمريكا وأخذتُ الدكتوراه، ومصاريفي تكفَّلتْ بها الكنيسةُ.

ـ ميهايل! لا تفهمْ ما سأقولُه بشكلٍ خاطئٍ، ولكن لا أجدُ ما قلتَهُ صواباً.

ـ ما المعنى؟

ـ أصبحَ واضحاً أنهُ ليستْ أوكرانيا من أرسلتْكَ، ولماذا أُرسلتَ أصبحَ واضحاً. هل تفكِّرُ أنكَ قدِ استُخدمتَ؟ بالإضافةِ إلى الراهبِ الَّذي تعرفتَ عليه من

الإنترنت قلتَ أنهُ أضاءَ قسماً من السوادِ الَّذي كانَ بداخلِكَ، لماذا لم يعطِ الأجوبةَ لكَ في حالِ أنَّ الدينَ يجبُ أن يجيبَ على جميعِ أسئلتِنا، أليسَ كذلكَ؟

لم يجبْ، بلْ كانَ بداخلهِ صمتٌ غريبٌ، وعندَ اتِّهامِه بشيءٍ كانَ يُظهرُ ردَّ الفعلِ نفسَهُ.

عندَما شعرتُ أنَّني قدْ أكونُ جرحتَهُ قليلاً اعتذرْتُ، وحاولتُ تغييرَ الموضوعِ لتلطيفِ الأجواءِ.

ـ ميهايل! في الوسطِ حقيقةٌ واضحةٌ وهي أنَّني وأنتَ مغدورانَ في هذهِ الحكايةِ.

ـ لا تقلقْ، فجماعتي هُنا سوفَ يهتمُّونَ.

ـ جماعتُك هُنا؟

ـ نعم هُنا.

ـ ميهايل! في الحقيقةِ لقدِ ارتحتُ لكَ كثيراً. هلْ تكونُ ضيفاً عندي عندَ خروجِنا من هُنا؟

قَالَ ضاحكاً:

ـ لمَ لا؟

❁ ❁ ❁

بعدَ مدةٍ من الزمنِ جاءَ شرطيٌّ وأخبرَنا أنَّه أُطلقَ سراحُنا، وأعطاني هويتي ولميهايل جوازَهُ.

عندَ خروجنا كانتْ هُناكَ سيارةٌ تنتظرُ ميهايل، ذهبَ إليهم وقَالَ لهم شيئاً ثمَّ عادَ إليَّ، وقَالَ متبسماً:

ـ هيا، سنذهبُ إلى منزلكَ.

ـ الآن؟

ـ نعم، ألم تدعُني لعندكَ؟

ـ كيفَ استطعتَ إقناعَ أصدقائِكَ؟

قَالَ مبتسِماً:

ـ هذا عملي!

ركبنا أحدَ المواصلاتِ العامةِ وتوجَّهنا إلى تشاملجا، عندَ وصولنا إلى المكانِ الَّذي جلستُ فيه من قبلُ كانَ قدْ حانَ أذانُ صلاةِ المغربِ.

خرجنا إلى الشرفةِ وشاهدنا منظرَ إسطنبول؛ كانَ منظراً رائعاً، وبعدَ أن صلَّيتُ صلاتي، شاهدتُ الأخبارَ مع ضَيفي، وأدهشنا ما رأيناهُ وسمعناهُ.

❁ ❁ ❁

كنَّا الخبرَ الرئيسيَّ لجميعِ الأخبارِ على التلفازِ، بعضُ القنواتِ تَقولُ: «الشعبُ أعدمَ المندسِّين»، «ضَرْبُ المندسِّين في الساحةِ العامةِ من قِبلِ الشعبِ» وبعضُ القنواتِ أيضاً قَالَتْ: الوحشيةُ الهمجيةُ».

الحدثُ الصباحيُّ كانَ على الشاشاتِ من جديدٍ، وبالأخصِّ وجهُ ميهايل الَّذي كانَ يُعرضُ باستمرارٍ.

مرَّتْ ساعتانِ، وعاد ميهايل لفتحِ التلفازِ من جديدٍ، وعشنا الصَّدمةَ للمرَّةِ الثانيةِ، فقدْ كُنَّا الخبرَ الرئيسيَّ أيضاً في بعضِ القنواتِ الأوربيةِ، أصبحَ وجهُ ميهايل أصفرَ، فقدْ أزعجَهُ كثيراً ما سمعْنا.

سألتُهُ:

ـ جماعتُك ماذا تَقولُ بخصوصِ ما حدثَ؟

نظرَ إليَّ بدهشةٍ وقَالَ:

ـ على الأغلبِ كنتَ محقّاً.

ـ ماذا تقصدُ؟

ـ «همجيةُ تركيا أصبحتْ علنيةً، إذا حصلَ نفسُ الشيءِ في الاتحادِ الأوربي كانوا سيُظهرونَ تسامحَهم.

الـهـمـجـيـةُ فـي دمِ الأتـراكِ، يـجـبُ أن نُـظـهـرَ قُـوتَـنـا للأتراكِ»؛ كلُّ هذهِ كلَماتٌ كانوا يقولُونها عنكمْ.

لـم أُعلِّقْ بقبولي على هذا الكلامِ، وكانَ يبدو عليهِ الحزنُ. بقينا صامتَينِ لفترةٍ، ثمَّ حانَ وقتُ صلاةِ العشاءِ.

عندَ ذهابي لأداءِ الصلاةِ كانَ يجلسُ على طرفِ الكنبةِ مهموماً، وعندَ انتِهائي من الصلاةِ كانَ ما يزالُ على نفسِ الوضعيةِ.

كانَ واضحاً عليهِ أن ذهنه مشوّشٌ، وكأنَّ السوادَ الَّذي كانَ يعيشُه عندَما كانَ في أوكرانيا قدْ عادَ.

❁ ❁ ❁

في القنواتِ البعضُ يسبُّ والبعضُ الآخرُ يُحرِّفُ الحقائقَ ويبالغُ ليجذبَ الانتباهَ، وفي بعضِ القنواتِ كانَ يُدرسُ الموضوعُ ويتساءلون لماذا أرادوا فعلَ مثل هذا الشيءِ.

أنا أُعطي أهميةً فقطْ لأفكارِ القنواتِ الدينيةِ، أحاولُ دائماً متابعةَ أخبارِها؛ بعدَ قليلٍ كُتبَ في أحدِ القنواتِ في أسفل الشاشةِ: «صدمةٌ لمنْ لم يعرفْ ما جرَى بالأمسِ،

سوفَ نوضحُ بعدَ قليلٍ». عجباً! ما هو هذا الخبرُ؟ لقدْ أثارَ فضولَنا.

بدأنَا نتابعُ القناةَ، وبعدَ قليلٍ ظهرَتْ صورتي على الشاشةِ وبجانبِها الادِّعاءاتُ بخصوصي، وشعرتُ حينَها أنَّني فقدتُ القدرةَ على التحكمِ بجسدي، كانَ يُقالُ أنَّ لي علاقةً مع جماعةٍ مسيحيةٍ ولي يدٌ فيما حدثَ.

انهرتُ بالكاملِ. كم هو مخيفٌ هذا الوضعُ! مسلمٌ يفتري على مسلمٍ، لقدْ كنتُ ضحيةَ افتراءٍ، ولكن اتهامَ المجتمعِ وضعٌ لا يُقبلُ بهِ.

قَالَ ميهايل:

ـ لا أفهمُ لماذا بعضُ القنواتِ التي تعرفُ الإسلامَ تتَّهمُكَ ويؤيدُها قِسمٌ من النَّاس، ونحنُ بالنهايةِ مسلمون!

ـ إنَّ هُناكَ بعضاً من المسلمين أصحابُ نيةٍ سيئةٍ ولا تمتُّ للإسلامِ بصلةٍ ويتمُّ استخدامُها.

ـ أنا إلى الآنَ لم أفهمْهُم ولا بأيِّ شكلٍ.

ـ أليسَ واضحاً، هذهِ المؤامرةُ قدْ خُطِّطَ لها من أحدٍ.

ومن الواضحِ أيضاً أنهُ تمَّ توظيفُكَ لهذهِ المؤامرةِ ورميُكَ كطُعمٍ.

تضَخُّمُ الحدثِ في فترةٍ قصيرةٍ ألا يُظهرُ أنَّ الأمرَ مُفبرك؟ انظُر إلى القنواتِ كيف تَقولُ الشيءَ نفسَه! اللهُ كبيرٌ، سيأتي اليومُ الَّذي يتضحُ فيه كلُّ شيءٍ، تعالَ لنتفقَ على شيءٍ معاً؛ لن نفتحَ التلفازَ لمُدةٍ.

ـ حسناً، ولكنَّني إلى الآنَ لم أقبلْ فكرةَ أنَّهُ تمَّ استخدامي، ولكنِّي أحترمُ صبرَكَ.

انقطعَ الحديثُ فجأةً وكأنَّ داخلَهُ دوامةٌ توقَّفتْ فجأةً.

ـ لا أفهمُ سببَ تضحيتِكَ لأجلي وتحمُّلكَ رغمَ كونِنا من دينينِ مختَلِفَينِ، ولكنكَ تتعاملُ معي وكأنَّنا من نفسِ الدينِ كالإخوةِ.

يمكنُني القولُ: لقدْ أثَّرتَ بي... تجدُ تفسيراً لكلِّ تصرُّفٍ، وصادقٌ في العيشِ مع دينكَ، وهذا أثَّر بي أيضاً.

ـ أنا لا أُفكِّرُ بكَ كمسيحيٍّ، ولكنَّكَ تحملُ بعضَ صفاتِ المسلمِ المؤمنِ.

ـ ماذا تقصدُ؟

ـ رسولُنا محمدٌ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قَالَ: «**يُولدُ المولودُ على الفِطْرةِ، فأبَواهُ يهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه**».

يعني أنتَ أصلاً تملكُ صفاتِ المسلمِ.

ـ لقدِ اختلطتِ الأمورُ عليَّ الآنَ.

ـ برأيي لا تخلطْها، بالعكسِ اجمعْها.

ألم ترَني أُصلِّي لأيامٍ؟

ـ نعم.

ـ الصَّلاةُ هكذا، السجدةُ موجودةٌ في جميعِ الأديانِ الإلهيةِ، في المسيحيةِ موجودةٌ أيضاً.

ـ أنا لم أقرأْ في الإنجيلِ بوجودِها.

ـ إذا سمحتَ لي سوفَ أقرأُ لكَ أجزاء من الإنجيلِ.

عندَما أخرجتُ من مكتبتي أكثرَ من كتابٍ للإنجيلِ تفاجأَ ميهايل.

ـ لأنَّهُ لا يوجدُ إنجيلٌ واحدٌ سأبحثُ في الجميعِ، انظرْ ماذا يقولونَ بخصوصِ الصلاةِ:

«**تعالَوا لنسجُد ونركَع**

لننزِل على رُكبَنا لربِّنا الَّذي خلقَنا».

«مُوسى وهارونُ قدْ أغلَقا

وجهَيهما إلى الأرضِ».

«وإبراهيمُ انغلقَ

بأعلَى رأسهِ إلى الأرضِ».

«ومُوسى الَّذي ذهبَ إلى الركعةِ

بعجلةٍ وقامَ».

كانَ هُناكَ صمتٌ كبيرٌ عندَ ميهايل، استمريتُ بحديثي؛ نَحنُ في الحقيقة نؤمنُ بأن عيسى عليه السلام هو رسولٌ كباقي الرسلِ.

ـ هل تعلمُ أن هُناكَ سورةً في القرآنِ اسمُها «مريم»؟

ـ لا لم أكن أعلمُ ذلكَ، هل يوجدُ حقاً؟

ـ نعم، نَحنُ أحياناً نسمِّي بناتِنا باسمِ «مريم» والذكورَ باسمِ «عيسى».

❁ ❁ ❁

فكَّر ميهايل طويلاً في ذلكَ اليومِ، واستمرَّ صمتُهُ

لمساءِ اليومِ التالي. بعدَ يومٍ جاءَ إلى جانبي وأخبرَني أنه يريدُ التَّحدثَ معي، أرادَ أنْ أستمعَ إلى قسمٍ من حديثهِ، فبدأتُ أستمعُ إليهِ بدقَّةٍ.

ـ أنا . . .

قَالَها بصوتٍ يرتجفُ.

ـ من بعدِ صداقتي معكَ شعرتُ وكأنَّني اقتربتُ أكثرَ من اللهِ، تعاملتَ معي وكأنَّني قريبٌ منك، على الرغمِ من أنَّكَ محقٌّ في كلِّ ما قلتهُ لكنَّكَ لم تحتقرْني أبداً، تعامَلتَ معي كصديقٍ وفيٍّ، معَ أنَّني قدْ قلبتُ حياتَكَ رأساً على عقبٍ ولكنَّكَ لم تتعاملْ معي بسوءٍ، ولم تدرْ لي وجهَكَ، ولكن ما أثَّرَ بي حقاً هو إيمانُكَ، رغمَ كوني مسيحيّاً إلا أنني لم أجدِ الأجوبةَ على جميعِ الأسئلةِ الَّتي سوَّدتْ داخلي.

لقدْ وجدتُ الضوءَ من مواقفكَ ومما شرحتَهُ لي، ساعدتَني على إيجاد الأجوبة على بعض الأسئلة الَّتي تدورُ برأسي، مثلاً لقد سألتَني «لماذا ندعو لعيسَى وليسَ للهِ؟» كنتَ محقّاً، فقد كنتُ أسألُ نفسي هذا السؤالَ أيضاً، والآياتُ الَّتي استدلَّيتَ فيها من الإنجيلِ عن أمثلةٍ للصلاةِ،

وحديثُكَ بينَ الحينِ والآخرِ، والآياتُ الَّتي ذُكرتْ في القُرآنِ بخصوصِ الرسلِ؛ جميعُها قدْ أثَّرتْ بي بعُمقٍ.

فكرتُ طوالَ اللَّيلِ وتوسَّلتُ إلى اللهِ: «يا الله، أظهرْ لي طريقَ خروجٍ، وأظهرْ لي ضوءاً أستدلُّ به».

وكما قلتَ؛ فكرتُ هل يمكنُ أنْ يَكونَ اعتقادُنا إسلاماً في الحقيقةِ؟! حتَّى تمنيتُ أنْ يَكونَ اللهُ قدْ خلقَني مسلماً.

عادَ رأسي مشوشاً كما كانَ في أوكرانيا، هل تدعو من أجلي؟

كانت عَينا ميهايل رطبةً، تأثَّرَ كثيراً، وكنتُ أريدُ أن أقولَ شيئاً ولكن لم يخرجِ الكلامُ من فمي، وعندَما عدتُ لنفسي أمسكتُ ميهايل من كتفهِ:

ـ الدعاءُ هو أكثرُ فعلِ خيرٍ يُفعلُ للناسِ، بالإضافةِ إلى أنهُ لا يكلِّفُ شيئاً.

ثمَّ قلتُ:

ـ طبعاً سأدعِي من أجلكَ يا صديقي اللَّيلةَ.

❁ ❁ ❁

مرَّ الوقتُ بشكلٍ خياليٍّ، ذهبْنا إلى النومِ لنستريحَ قليلاً، وعندَما حانَ وقتُ أذانِ الفجرِ، فتحتُ النافذةَ وكأنَّ صفاءَ اللَّيلِ قدْ غسلَ وساخةَ ضجيجِ المدينةِ.

نسيمٌ خفيفٌ من المضيقِ هبَّ على وجهي، وفجأةً بدأتْ كلُّ مساجدِ إسطنبول بالأذانِ.

ومع نسيمِ المضيقِ كانَ كلُّ ما عشتُه قدْ أُخذَ من داخلي، وبدأَ يخرجُ على خدِّي كدموعٍ، كمْ هو إحساسٌ رائعٌ أنْ تبكيَ مقابلَ صوتٍ كهذا!

بعد انتهاءِ الأذانِ أغلقتُ النافذةَ وعدتُ إلى الداخلِ، لاحظتُ وقوفَ ميهايل خلفِي، كانَ هُناكَ آثارُ دموعٍ على خدَّيهِ، كانَ حالُهُ غريباً، أمسكَ بيدي دافناً دموعِي بدموعِه وقَالَ:

ـ أنا أريدُ أنْ أُصلِّي.

كانتْ هذهِ الكلمةُ أجملَ كلمةٍ أسمعُها من أحدٍ طوالَ حياتي، دونَ أنْ أسألَهُ شيئاً قلتُ لهُ:

ـ حسناً.

أَخذتُهُ إلى صنبورِ الماءِ وبدأتُ بالشرحِ عن كيفيةِ الوضوءِ، وسرعان ما توضَّأَ.

مددتُ له سجادةَ الصلاةِ لأنَّني كنتُ أعرفُ ماذا سيسألُ؛ فقطْ قلتُ له أنْ يَقولَ: «بسمِ اللهِ» ويفعلَ تماماً كما أفعلُ.

خلالَ الصلاةِ سمعتُ صوتَ ميهايل وهو يقولُ: «بسمِ اللهِ»، وعندَ اقترابِ نهايةِ الصلاةِ كانَ يقولُ: «بسمِ اللهِ» بصوتٍ أَعلى.

وعندَما وصلْنا لآخرِ سجدةٍ وسمعتُ صوتَ بكائِهِ من خلفي لم أستطعْ إطالةَ السجدةِ. واستقرَّ الشُّعورُ وتابعْنا مسيرةَ الحياةِ.

حَالاتُ العُمرِ

الشَّفَقُ

الشفقُ ينزلُ، والبراعمُ الَّتي في الحديقةِ تميلُ باتِّجاهِه، ولم يتفتحْ شيءٌ منها بعدُ، صوتُ الأذانِ يعلو أوَّل الصباحِ مبشِّراً بحياةٍ ستدبُّ بداخلِ بذرةِ برعمٍ لم تتفتحْ، وشمسٌ لم تشرقْ، وطفلٌ لم يولدْ.

يغسلُ الأذانُ الصباحيُّ الظلامَ القاتمَ في الأجواءِ، وهواءُ الربيعِ يلفحُ الوجوهَ بنسيمٍ دافئٍ؛ استيقظَ ولدي مبكراً عندَ أوَّلِ ضوءٍ ساطعٍ للشمسِ يشعُّ من نافذتي ليذهبَ إلى المدرسةِ، حيَّاني بتحيةِ الصباحِ وبهجةُ الإشراقِ على وجهِهِ، وأخذَ يجهِّزُ نفسَه لينطلقَ بخطواتٍ نشيطةٍ إلى قلبِ الحياةِ؛ أمسكَ يدي بطاعةٍ وعيناهُ الخضراوتانِ تنظران للحياةِ بفضولٍ، وظِلُّ الشَّمسِ يعكسُ على وجهه خيوطَ أملٍ.

نظرَ إلى البراعمِ الَّتي لم تتفتحْ في الحديقةِ وأخذَ يُفكِّرُ بها، في حينِ تتجمعُ البلابلُ في حديقةِ الوردِ مع إطلالةِ يومٍ جديدٍ. كأَنَّ الوردةَ المتفتِّحةَ تَقولُ له:

ـ لا تنظرْ إلى البراعمِ، انظرْ إلى وسطِ الأوراقِ لترَى ما في داخلِ البرعمِ، فربَّما داخل البرعمِ يوجدُ الكثيرُ من الأوراقِ، وشمسُ الصباحِ والربيعُ وولادةُ طفلٍ وكأَنَّها الحياةُ بذاتِها.

❁ ❁ ❁

يخرجُ من قلبِ البرعمِ صوتٌ غريبٌ كأنَّه ذكرٌ يخرجُ من أعماقِه، يَحمرُّ التفاحُ، وتقفُ الحياةُ عندَ السهولِ؛ وكأَنَّها تعلو مع صوتِ المآذنِ.

بلحظةٍ بدأتِ الأجواءُ بالازدحامِ، البعضُ يتوجَّه كشخصٍ واعٍ لصوتِ الأذانِ؛ وكأَنَّ حياةً جديدةً تبدأُ عندَ آخرِ الظهيرةِ، كأَنَّها في أربعينيَّتها؛ رسولُنا عندَما كانَ في عمرِ الأربعين كانَ يقومُ بمعاركَ.

ابني الكبيرُ في العشرينَ من عمرهِ يعني هو في فترةِ ما قبلَ الظهيرةِ؛ اتصلَ بي من بعيدٍ:

ـ كيفَ حالكَ أبي؟

وكأنَّ الحياةَ تأتي من صوتهِ.

عادتِ الشَّمسُ لوجهِ الزهورِ وكأنَّها تُسلِّم عليها، وضوءُ الشَّمسِ على أوراقِ الورودِ، ذروةُ الشَّمسِ، وأذانُ الظهرِ، وحكمةُ الشبابِ والأربعيني.

❁ ❁ ❁

العَصْرُ

يقتربُ الظلُّ قليلاً قليلاً، رجلٌ في متوسطِ عمرهِ ـ يعني أنا ـ أُبارزُ أحدَهم، ورجلٌ يقفُ في الزاويةِ يبيعُ الكعكَ يصرخُ على الرجالِ الذين في مثلِ عمري. ينتهي اليومُ وأتركُ خلفي وادياً أخضرَ، أفكِّرُ أنَّ التجاعيدَ في وجهِ النبيِّ ذي الأربعين عاماً تدلُّ على نضجهِ.

في القريةِ المجاورةِ يُقرأ أذانُ العصرِ، لماذا يا ترَى أذانُ العصرِ يقرأُ بحزنٍ بالمقارنةِ مع أذانِ الظهرِ؟!

الجوُّ ليسَ بحارٍّ ولا باردٍ، كلُّ شيءٍ أقربُ إلى الصَّفاءِ والركودِ. يريحني الابتعادُ عن ضجةِ المدينةِ، فيكونُ سكونُ الوقتِ، وسكونُ المكانِ كالدواءِ لروحي.

أعودُ إلى البيتِ بخطواتٍ هادئةٍ، وبيدِ زوجتي باقةُ وردٍ، وتَقولُ مسرورةً:

ـ كل عامٍ وأنتَ بخيرٍ، أصبحتْ (40) عاماً.

تواسيني قائلةً:

ـ الحياةُ تبدأُ بعدَ الأربعينَ.

لكنَّها في الحقيقةِ تعرفُ جيداً أن الشبابَ متعلِّقٌ بالعمرِ، كنَّا نتمتَّعُ بالسعادةِ.

❁ ❁ ❁

تقلقُ الشَّمسُ لارتفاعِ الأفقِ فتغربُ، الأجواءُ كفتاةٍ حاملٍ، والوقتُ يذبلُ، ويأتي لآخرِهِ. أتذكَّرُ الرسولَ ﷺ؛ ألمْ يعشْ هذا الجمالَ في آخرِ زمانِهِ؟!

العصرُ، ألا يُذكِّرنا بموسمِ أيلول الحزينِ؟ والعصرُ القاسي الَّذي عاشَه الرسولُ ﷺ آخرَ الزمانِ ألمْ يتحوَّلْ إلى سعادةٍ في النهاية؟

أوَّلُ خطوةٍ في عالمِ الشيخوخةِ... الرسولُ، وصوتُ الأذانِ الحزينِ، والاحمرارُ.

❁ ❁ ❁

المَسَاءُ

أقتربُ إلى الساحلِ، المياهُ الساكنةُ تأتي من البحرِ وتضربُ على الساحلِ، على الرملِ آثارُ قدمِ رجلٍ متوسطِ العمرِ وكأنهُ لم يردْ أنْ يَتقدَّمَ عميقاً.

كلُّ شيءٍ أصفرُ اللَّونِ، الأشجارُ صفراءُ، الأوراقُ المتساقطةُ صفراءُ، والوجوهُ صفراءُ. تقتلعُ رياحُ الخريفِ الحزينةُ أوراقَ الأشجارِ.

يشاهدُ أبي بعمقٍ وبدموعٍ حزينةٍ اليومَ الشاحبَ، والأوراقَ الشاحبةَ والأفقَ الأحمرَ.

❁ ❁ ❁

أذانُ المغربِ يُقرأُ بسرعةٍ، كلُّ شيءٍ في عجلةٍ، كمْ يمرُّ الوقتُ بسرعةٍ!

السُّحقُ المأخوذُ من ذروةِ الشَّمسِ والمرميُّ على البحرِ، والبحرُ الَّذي يبكي بعيونٍ تنزفُ دماً عندَ غروبِ الشَّمس، وتوهُّجُ الشَّمسِ كالحريقِ يكونُ على البحرِ، أبي المُسنُّ، الخريفُ، الشَّمسُ الَّتي تغربُ، والبحرُ الباكي.

❁ ❁ ❁

اللَّيْلُ

يبدأُ الظلامُ وتنخفضُ الحرارةُ، الشتاءُ يُبرِّدُ كلَّ حيٍّ. يُقرأُ أذانُ العشاءِ بصعوبةٍ، أتوجَّهُ إلى الجامعِ

كانَ يصدحُ في الظلامِ صوتُ نشيدٍ من منزلٍ جدِّي، السماءُ مغلقةٌ، والوقتُ شتاءً، واللَّيلُ أسودُ والعقلُ يلتبسُ.

العالمُ في البدايةِ يقفُ عندَ القبرِ، فيتذكَّرُ الإنسانُ كمْ روحهُ بحاجةٍ للرحمةِ والعطفِ، وتُفتحُ ستارةُ مسرحِ الدُّنيا، واللهُ سبحانه وحدهُ يعلنُ حكمَ الوجودِ.

أذانُ العشاءِ يُنادي مُعطياً فرصةً أخيرةً للإنسانِ ليتحرَّكَ، الزمانُ والمكانُ ليسا بيدِكَ، والموتُ ينتظرُ عندَ البابِ، هيا تعالَ وأنقذْ نفسَكَ.

كلُّ هذا يُذكِّرُهُ أنه يجبُ أنْ يَحمدَ اللهَ كثيراً ويصلِّيَ السُّنةَ في صلواتهِ شكراً على النعمِ الكثيرةِ الَّتي لا تُحصَى... أذانُ العشاءِ، اللَّيلُ، جدِّي، والموتُ.

❁ ❁ ❁

أوقاتُ اليومِ بمعانيها؛ الشفقُ: الرَّحمةُ، الصباحُ:

الطفولةُ، الظهرُ: الشبابُ، العصرُ: النضجُ، المساءُ: العمرُ للرجلِ، اللَّيلُ: الشيخوخةُ والموتُ.

وأيضاً هُناكَ الفصولُ بَعدَ ذَلكَ؛ الربيعُ: الشبابُ، الصيفُ: النضجُ، الخريفُ: الشيخوخةُ، الشتاءُ: الموتُ.

باختصارٍ؛ لكلِّ شيءٍ معنى يشيرُ إلى العمرِ.

سَامِحْ عَقْلَكَ

بعدَ مرورِ عدةِ سنواتٍ التقيتُ بأحدِ طلابي، قَالَ ملقياً عليَّ السلامَ:

ـ معلِّمي «سامحْ عقلَكَ»!

نظرتُ إليهِ مستغرِباً:

ـ عنْ أيِّ عقلٍ تتحدَّثُ يا ولدي؟

ـ معلِّمي؛ لقدْ أعطيتَنا مِن عقلِكَ وفكرِكَ لسنواتٍ. لهذا قلتُ ما قلتُهُ.

افترقْنا بعدَ أنْ تحدَّثْنا قليلاً، ولكن ما قَالَهُ الطالبُ بقيَ في بالي، توقَّفتُ لأفكِّرَ بعمقٍ فيهِ، كنتُ مُستعجلاً، وللحظةٍ فكَّرتُ:

ـ ماذا لو كنتُ قدْ أعطيتُ أفكاراً خاطئةً لطلابي؟!

كيفَ لم يخطرْ ذلكَ ببالي من قبلُ! بالإِضافةِ إلى أنهُ لا يمكنُ تلافي خطأٍ كهذا.

عدتُ إلى البيتِ مساءً بهذا التفكيرِ، فتحتُ التلفازَ وشاهدتُ الأخبارَ قليلاً؛ جريمةٌ، سرقةٌ، اغتصابٌ، خطفٌ... وبَعدَ ذَلكَ، أخبارٌ عنِ الأضرارِ الَّتي لحقتْ بالعقولِ، ثمَّ بعدَها تصرُّفاتُ الفنَّانينَ الذين أنكروا ثقافتَهم الحقيقيةَ!

أخبارُ المجلاتِ تُشوشُ عقلي جداً، فنحنُ المعلمينَ مَن قامَ بتربيةِ هؤلاءِ الناسِ.

ذهبتُ لتأديةِ صلاتي، لا أعلمُ هلِ الدعاءُ سينقذُني، ولكني رفعتُ يدي وقلتُ:

ـ يا ربِّ! سامحْ عقلي.

جدِّيَ العُثْمانِيُّ والوُرُودُ

كم هو محزنٌ عودةُ جثثِ أجدادِنا الذين قاتلوا مع العدوِّ في الجبالِ. كانَ جدي الكبيرُ يقاتلُ في جبهةِ قفقس، كانَ عمرُهُ واحداً وعشرين عاماً، في ذاكَ الوقتِ لم يأتِ خبراً عنه لا بموتِه ولا بإصابتِه، زوجتُه وأمُّه مازالتا لوقتِها يعانيان ألماً شديداً بسببِ عدمِ عودتِهِ من العسكريةِ.

خرجَ تعيينُ عسكريةِ ابنهِ في شهرِ ديسمبر الباردِ، خرجَ إلى طريقهِ بحزنٍ شديدٍ، كانَ كالغصنِ الَّذي يرجفُ في مواجهةِ عاصفةٍ قويةٍ، ذهبَ إلى فراشهِ وتلحَّفَ جيداً كما كانتْ تَقولُ له أمُّه، لم يتوقفْ رجفانُه رغمَ أنه قدْ تلحَّفَ جيداً.

بعدَ يومينِ ـ تاركاً ثلاثةَ أيتامٍ خلفَه كأبيهِ ـ خرجَ في

رحمةِ الرحمنِ، وكانَ جدي بجانبي حينَها. لهذا كانَ كلُّ عسكريٍّ قدْ ماتَ في ساركاميش يعرفُ جدّهُ جيداً.

❁ ❁ ❁

أعيشُ حزناً جديداً كلَّ مرَّةٍ أتذكَّرُ فيها الحادثةَ، أنا لم أرَ أجدادي أبداً، هُناكَ الآلافُ من الأطفالِ مثلي عاشوا حزناً من بعدِ حادثةِ ساركامش.

يمكنُ لهذا السببِ كلمةُ جدي عندي لها معنى غامضٌ وساحرٌ؛ الأجدادُ لا يشبهونَ الآباءَ، همْ لا يغضبونَ أبداً، يتجوَّلونَ دائماً بمحبةٍ وشفقةٍ.

ربَّما هذا بسببِ أنهمْ لا يبقونَ طويلاً، لقدْ وزعَ اللهُ في قلبِ كلِّ إنسانٍ قدراً من الحبِّ والشفقةِ كأمانةٍ عندَهُ؛ تظهرُ عندَ بعضِهم بكثرةٍ وتتناقصُ عندَ البعضِ الآخرِ، في الشارعِ، وفي السوقِ. ولصرخةِ شَفَقةٍ من فمِ طفلٍ كنتُ أتأثَّرُ.

ربَّما لهذا السببِ كانتْ تجرحُني كلمةُ جدِّي كثيراً، في كلِّ عيدٍ كنتُ أحضنُ كلَّ كبيرٍ في السنِّ لديهِ لحيةٌ وفي وجههِ نورٌ يمرُّ من الشارعِ.

البعضُ يُفكِّرُ أنَّني أفعلُ ذلكَ لأنَّني أريدُ مالاً ويدخلُ يدَهُ في جيبهِ، والبعضُ يُخجلني بقولهِ: «ليسَ لديَّ المالُ»، والبعضُ الآخرُ يتعاملُ معي ببرودٍ: «الأجدادُ همْ ذراعُ الأحفادِ».

❀ ❀ ❀

عندَما كنتُ أتخيَّلُ جدي كانَ أوَّل ما يخطرُ ببالي الوردُ، كانَ يحبُّ الوردَ كثيراً، فقدْ كانَ يزرعُ الوردَ في حديقةِ منزلهِ، ويحضرُ باقةً لجدتي منها.

كانَ شخصاً صاحبَ ذوقٍ، كانَ يقولُ: «الوردُ رائحةُ النبيينَ».

كانتْ رائحةُ أولادِهِ كالوردِ عندَهُ، لقدْ بدأَ حبُّ الوردِ عندي عندَما سمعتُ عن حبِّ الأنبياءِ وجدي لها، ربَّما لذلكَ أربطُ الوردَ بجدي دائماً.

الآنَ اكتشفتُ سرَّ الوردِ الموجودِ في مؤسساتِ الحضارةِ العُثمانيةِ، واكتشفتُ سرَّ الوردِ الموجودِ في حديقةِ بغدادَ منذُ زمنٍ قديمٍ.

كنتُ أفكِّرُ دائماً أنَّ الورودَ والأجدادَ ذوي الوجهِ المنيرِ

لديهمْ غموضٌ، وإذا أردتُ فهمَ سحرِ الشِّعرِ فعليَّ أنْ أذهبَ إلى المدينةِ الغامضةِ بغدادَ لهذا فيما يشبهُ هذا الزَّمان.

❁ ❁ ❁

دجلةُ سيدةُ الورودِ، فالناظرُ إلى دجلةَ يجدُ في فناءِ منزلِها جَداً مع حفيدِهِ، فناءٌ ذو جدارٍ مسطَّحٍ ومليءٍ بالوردِ الحمراءِ، يشتمُّ الجدُّ الوردَ تارةً وحفيدَهُ تارةً أُخرى.

الطِّفلُ يلعبُ في حديقةِ الجنةِ، لكن ما هذا الحزنُ الغامضُ الَّذي على ملامحِ الجدِّ؟!

بعدَ قليلٍ يتحوَّلُ هذا الحزنُ إلى حقيقةٍ؛ تبدأُ الصواريخُ بالتساقطِ منَ السماءِ، الجدُّ يحاولُ بخوفٍ حمايةَ حفيدِهِ، ما بالُكَ بقطعِ الشَّظايا الَّتي تضربُ الوردَ من جذورها؛ جعلُوا الطفلَ مثلَ البلبلِ الَّذي يفقدُ روحَهُ، تلطختْ أوراقُ الوردِ بالدمِ، بعضُها كُسرَ من ساقهِ والبعضُ من أوراقهِ؛ وكما يُسكبُ اللَّونُ على الأرضِ سُكبتِ الدماءُ.

لاحظَ الطفلُ الدمَ الَّذي على ورقَةِ الوردةِ، حملَ الجدُّ حفيدَه من الأرضِ بسُرعةٍ كالوردةِ المقطوفةِ والمرميةِ على الأرضِ، كانتِ الدموعُ الَّتي على وجهِ الجدِّ تغسلُ وجهَ

حفيدِه الملطخَ بالدماءِ، ما الَّذي حصلَ لتنزفَ الورودُ هكذا؟!

❁ ❁ ❁

عندَما كنتُ أقرأُ عن تاريخِ الدولةِ العثمانيةِ كنتُ أتخيلُ جدي دائماً؛ كجنديٍّ يقاتلُ في ساحةِ المعركةِ، ثمَّ قرأتُ فترةَ سقوطِها، وتخيَّلتُ جدي كبيراً بالسنِّ حينَها، كانَ هذا الخيالُ يسعدُني كثيراً، حتَّى عندَ سقوطِ الدولةِ كانَ واقفاً دائماً لا يهزمُهُ شيءٌ، يخيفُ الأعداءَ بثباتِه. كنتُ أقتربُ أكثرَ وأكثرَ بثقةٍ إلى جانبِ جدِّي الخياليِّ، لأنَّ الجدَّ يعني الثقةَ.

❁ ❁ ❁

اليوم في الجامعِ الجديدِ رأيتُ جَدّاً ذا لحيةٍ ووجهٍ منيرٍ، كانَ واقفاً في فناءِ الجامعِ ينظرُ إلى الورودِ، كانَ يعانقُ وردةً طويلةً بأصابعِهِ، وينتظرُ الأذانَ.

اقتربتُ إلى جانبِهِ وسألتُهُ ما به، قَالَ لي:

ـ الآنَ لم يبقَ وردٌ في حديقةِ الأولادِ.

ـ يا جدُّ! من المحتملِ أنهُ يوجدُ لديكَ أحفادٌ تشتمُّهم بدلاً من الوردِ.

ـ جميعُهم قدْ كبروا، تغيَّرتْ ألوانُهمْ، ولا أحدَ يبحثُ عني.

وحرَّكَ ورقةَ الوردةِ بحزنٍ. ذهبتُ إلى المنزلِ بعدَها بخطواتٍ ثقيلةٍ.

في كلِّ مكانٍ يوجدُ ظلمٌ، الظالمُ كانَ بجانبنا، قريبٌ منَّا. في الأخبارِ كانَ هُناكَ بناءٌ قدْ قُصفَ بصاروخٍ، كانوا يُخرِجون من تحتِ الأنقاضِ أطفالاً علا وجوهَهمْ الدمُ والترابُ، وفي النهايةِ جاءتْ عيني على جثةِ طفلٍ، كانَ وجهُه ملطَّخاً بالدمِ والتُرابِ، وكأنني رأيتُ على وجهه ضحكةً شاحبةً.

بقيتُ جالساً على الكنبةِ كالجثةِ، دمي وجلدي كالجليدِ، شعرتُ بألمِ جدِّي الباردِ من داخلي الآنَ.

في المكانِ الذي تسقطُ فيه القنابلُ هُناكَ المئاتُ من الأطفالِ يصبحونَ وردةً شاحبةً، فكرتُ في الورودِ الَّتي ليسَ لها حولٌ ولا قوةٌ، فكرتُ بالعُثماني وبكيتُ، فكرتُ بجدي وبكيتُ.

❁ ❁ ❁

هذهِ حكايةُ شخصٍ لم يُهزمْ أمامَ كلمةِ الـ «أنا»، بعضُ النَّاسِ في عراكٍ دائمٍ مع الناسِ، المدنِ، الزمانِ، مع كلِّ شيءٍ.

في الحقيقةِ هؤلاءِ النَّاسُ يتعرَّضون للهواءِ نفسِهِ وللرطوبةِ ذاتِها، في البلد عينِه، ويسمعون الأغاني نفسَها، ويؤمنون بإلهٍ واحدٍ وبالرسلِ أنفسِهم، ويعيشون تحتَ شمسِ دينٍ واحدٍ.

هلْ هُناكَ داعٍ للمرآةِ؟ رغمَ كلِّ هذا التشابهِ تجدُ القبضاتِ مشدودةً والساحةَ دخاناً.

سيأتي يومٌ ينتهي فيه دورُنا ونؤخذُ من المسرحِ بعدَهُ. حتَّى إذا أردْتَ فلا يمكنكَ الشَّدُّ على قبضتكَ، وإذا شددتَ على قبضتِكَ فلنْ تضرَّ أحداً.

عندَ وصولِ النَّاسِ إلى المسرحِ وعندَ وجودِ دخانٍ في الأجواءِ؛ يتواجدُ في المسرحِ رجلٌ ذو وجهٍ متوردٍ مضيءٍ.

تتلامسُ القبضاتُ في الهواءِ، العيونُ المتغذيةُ على السوادِ لا تستطيعُ أنْ تتفتَّحَ في الضوءِ، تضيقُ الأرواحُ، وتتأزَّمُ الوجوهُ ويصبحُ الغذاءُ ملحَ الضجيجِ.

عندَما يعبسون، يبتسمُ الرَّجلُ ذو الوجهِ المتوردِ، وعندَما يبدؤون بحربٍ بشجاعةٍ جاهلةٍ يحافظُ هو على هدوئهِ، وعندَما يقومون بالحسابِ يحاسبُ هو عن يومهِ فقطْ.

لا يهتمُّ باستحقارهمْ له. همْ يطلبون الظلامَ وهو يكونُ النورَ، وفجأةً العراكُ الَّذي فيما بينَهم يتحوَّلُ إلى الرَّجلِ المتوردِ، يُقدِّمُ وردةً في وجهِ القبضاتِ ويقولُ:

ـ نَحنُ لم نأتِ هنا للعراكِ، جئنا للحبِّ. بكلِّ طرفٍ رائحةُ الوردِ.

وفي يومٍ ما، عندَما يضيءُ اليومُ، كلُّ شخصٍ سيقابلُ الورودَ الَّتي في حديقةِ منزلهِ.

تركَ الرَّجلُ متوردُ الوجهِ الحوارَ وذهبَ، في الحقيقةِ هو في كلِّ مكانٍ ولكنَّهُ غيرُ موجودٍ، البعضُ يلاحظهُ والبعضُ الآخرُ لا، هو راضٍ عنِ اختفائهِ عندَما تكون هُناكَ وردةٌ في الحقيقةِ تتفتحُ.

إرادتُه الوحيدةُ كانتْ رضا اللهِ، حكايةُ الشخصِ الَّذي لم يُهزمْ أمامَ كلمةِ «أنا» حكايةٌ لا تنتهي.

الدُّخانُ

كانَ صباحاً مشمساً في شهرِ مايو، وبعدَ مرورِ شتاءٍ طويلٍ عادَ اللَّونُ الأخضرُ إلى التلالِ والبياضُ إلى الأزهارِ، وأخذتِ الآفاقُ نصيبَها من البريقِ وأخذتِ العصافيرُ نصيبَها من السعادةِ.

كانتِ التربةُ المتشقِّقةُ في الفناءِ السببَ في سعالِ الرَّجلِ. نظرَ الرَّجلُ إلى السيجارةِ الَّتي في يدِه باشمئزازٍ، ثمَّ أخذَها ووضعَها في فمهِ وكأنهُ غيرُ الرَّجلِ الَّذي نظرَ قبلَ قليلٍ لها بهَذهِ الطَّريقةِ، كانَ يسعلُ من جديدٍ عندَما ينفخُ الدخانَ خارجَ رئتَيهِ.

قَالَتْ له سيدَةٌ:

ـ وكأَنَّكَ لا تستطيعُ العيشَ بدونِها!! انظرْ! إنكَ تُعطي الأطفالَ من سُمِّه وضررِه. فليسامحْكَ اللهُ على فعلكَ هذا.

هذا الكلامُ كانَ يُقالُ له مراراً وتكراراً.

مسكَ السيجارةَ بإصبعَيهِ الأوسطَينِ من طرفِها وأطفأَها بسرعةٍ عندَما رأَى بأنَّ الدجاجَ الَّذي كانَ في الأسفلِ يبتعدُ.

قَالَتِ المرأةُ مستمرَّةً بحديثِها:

ـ انظرْ! حتَّى الدجاج لم تعجبْهُ.

أخذَ الرَّجلُ يهزُّ برأسهِ وسكتَ، ثمَّ ألقَى السلامَ على الجارِ المارِّ ملوحاً بالسلةِ الَّتي بيدِه، وسألَهُ:

ـ إلى أينَ أنتَ ذاهبٌ؟

ـ لأسألَ الشيخَ.

ثمَّ قَالَ مُلمِّحاً:

ـ إذا لم تكنْ مشغولاً خذني معكَ، فأَنا لا أليقُ بهذا المكانِ.

ـ ومَن منَّا يليقُ به؟ وإذا كانَ هُناكَ شيءٌ ستَسألُه فسيُجيبكَ.

توقَّفَ للحظةٍ؛ كانَ منَ الجيدِ أنْ يعلمَ حكمَ هَذهِ السيجارةِ!

فجأةً وجدَ الرَّجلُ نفسَه في الطَّريقِ، وكانَ هُناكَ شخصٌ يُدعَى مبارك يشربُ كثيراً من الشاي، عندَما كانَ يتسلَّقُ التلةَ

كانتِ البحيرةُ خلفَهُ قدْ صغرتْ، وكانَ هُناكَ صوتٌ خفيفٌ قادمٌ من الجبلِ.

الدخانُ حجبَ الرؤيةَ عن جمالِ البحيرةِ، وكانَ في عقلهِ دائماً يرددُ: «السيجارةُ والدخانُ».

عندَ وصولِهم إلى القريةِ العاليةِ كانَ هُناكَ منزلٌ خشبيٌّ ذو طابقينِ، توقَّفا عندَ بابهِ، وفوقَ الشَّجرةِ الموجودةِ أمامَ المنزلِ كانَ هُناكَ كوخٌ خشبيٌّ.

قَالَ كلٌّ منَّا للآخرِ:

ـ أنتَ اطرقِ البابَ.

قَالَ لي:

ـ مستحيلٌ، أنا لَستُ صاحبَ هذا المكانِ.

ـ لا يمكنُ أنْ يَكونَ لهذا المكانِ صاحبٌ.

دخَلنا وألقَينا السلامَ، السيدُ مباركٌ وقفَ للتَّرحيبِ بالضيوفِ، وأشارَ لهم أينَ يجلسون.

ـ أَهلاً وسَهلاً بكم إِخوَتي.

وكانَ في الداخلِ ثلاثةُ أشخاصٍ يعانونَ من كسرٍ في ركبَتهمْ.

استمرَّ في الحديثِ، وقامَ أحدُ الرجالِ بأدبٍ بتقديمِ الشاي للضيوفِ واضعاً السكرَ بداخلِ الفنجانِ دونَ تحريكِهِ بالملعقةِ.

كانَ هُناكَ جوٌّ خرافيٌّ ومتواضعٌ، بعدَ الحديثِ والدعاءِ، وعندَ خروجِنا قامَ الرَّجلُ بتقديمِ العسلِ كضيافةٍ قائلاً:

ـ سَيدي! ادعُ لنا.

ـ ليسَ من عادتنا قبولُ الهدايا، فقطْ نقبلُ الأجرةَ مقابلها.

ومرَّرَ كتاباً من كتاباتهِ فأخذَ الرَّجلُ الكتابَ، حاولتُ جمعَ السؤالِ في عقلي: ما حكمُ التدخينِ؟ ولكن لم أكنْ أعرفُ كيفَ أبدأُ الحديثَ.

ـ معلِّمِي، سيدي، تفضَّل!

كلُّ شخصٍ كانَ يقولُ له سيِّدي ولكنَّه لم يكنْ سيداً، فوجدتُ من الأفضلِ أنْ أناديَه معلِّمي.

قَالَ السيد:

ـ النحلُ خطيرٌ، كيفَ استطعتمْ أخذَ العسلِ منه؟

ـ سيدي! نَحنُ ننفثُ الدخانَ في مملكةِ النحلِ ليخرجوا منها، ثمَّ نجمعُ العسلَ مِن بعدِها.

ـ إنه كالسيجارةِ.

السؤالُ الَّذي خطرَ على بالِ الرَّجلِ؛ ماذا أرادَ القولَ يا تُرى؟

هل أرادَ القولَ أنه عندَ دخولِ الدخانِ إلى الجسدِ تخرجُ الروحُ ببطءٍ؟!

بعد قوله، عادَ السيدُ وقَالَ للرجلِ:

ـ هلْ لديكَ تقريرٌ يا أخي؟

للحظةٍ رجفَ الرَّجلُ وقَالَ:

ـ ننتظرُ الدعاءَ يا سيدي.

الحَيَاةُ المَفْقُودَةُ
والآمَالُ الَّتي لا تَنْتَهي

فتحَ دورمش عينيه وقَالَ «ماء»، نظرتْ عائشةُ إلى دورمش، لم يكنِ الوقتُ مناسباً لأيةِ ضغينةٍ، كانَ في وجهِ عائشةَ ابتسامةٌ قاسيةٌ، وعندَما نظرتْ إلى دورمش كانتْ تتذكرُ ألمَها، فقدْ حضنتْ آمالَها وفكرتْ بذهابِها إلى ألمانيا؛ فعندَما جاءَ قبولُ طلبِ ذهابِه إلى ألمانيا عادتْ إلى البيتِ ودموعُ الفرحةِ تملأُ عينَيها.

كانَ دورمش فتى داكنَ اللَّونِ، يتيماً ليسَ له أحدٌ، كانَ قدْ رُمِي وتُركَ منذُ زمنٍ، لم يكسرْهُ فقرُه أبداً، ولم تهزمْه غربتُه.

منذُ اليومِ الَّذي سمعَ فيه اسمَ «ألمانيا» وآمالُه الَّتي تقفُ بعيداً مشتْ وذهبتْ. الحقيقةُ الخياليةُ تحققتْ، كعَلَمٍ حالمٍ يرفُّ في يده، قَالَ دورمش:

ـ مَن هذا؟ لن تكونَ عائشةُ مثلي فقيرةً.

قَالَتْ عائشةُ:

ـ في وقتِ رسالةِ تخرُّجكَ سأكونُ بجانبكَ.

تذكرتْ عائشةُ لحظةَ تغيَّمَ وجهُها، وكأنَّها شعرتْ بما سيصيبُها؛ كانتْ آمالُ دورمش تمرُّ من فوقِ وحدتِها، وقدْ ودَّعتْه بدموعِها.

❁ ❁ ❁

في البدايةِ الصوتُ الخارجُ من الرسائلِ قدْ أخمدَ صوتَ دورمش، شاهدتِ الرسائلَ الَّتي تبدأُ بقولِ: «عائشة! سآخذُكِ إلى جانبي».

مِن بعدِ تلكَ الرسالةِ لم تأخذْ أيَّ خبرٍ مِن دورمش. صمْتُهُ وعدمُ إرسالِه أية رسالةٍ تحوَّلَ إلى جنونٍ داخل عائشةَ.

حياةُ ألمانيا المليئةُ بالألوانِ قدْ أخذتْه وحطَّمتْ عائشةَ. نسبتْ جفاءَ دورمش لنفسِه وغفلتِه ولهوِه عندَ الألمانِ.

عندَما ذهبَ دورمش كانتْ عائشةُ قدْ تزوجتْ وأصبحتْ حاملاً من شخصٍ اسمُه «كامل».

كانت الغيومُ السوداءُ قَدْ مَشَتْ على وجهِ القمرِ، وعاقبتْ نفسَها بدموعٍ حارقةٍ، حتَّى ذبلتْ وتحوَّلتْ إلى دمعةٍ جافةٍ، عندَما كانَ سيد البيت كانت عائشة مرساة يده، الآن هي بلا حولٍ ولا قوةٍ، ومن بعد ذاك اليوم دموع عائشة أصبحت كالحبال.

وبعد مرور وقتٍ كانت آمال دورمش قدْ كبرت، وهُناكَ من سيمرُّ في وسط القرية بسيارةٍ حمراء اللَّون.

بعد سنوات فقرٍ طويلةٍ عاد دورمش وهو يرتدي قميصاً عالي اللياقة وفوقه سُترة، ويحسده كل من ينظر إليه من التلة، كانوا يقولون لها:

ـ لم تزوجتِ يا عائشةُ؟

وفي عينيها الندمُ، فقدْ ألقتْ بنفسِها للهاويةِ.

كانَ «كامل» السببَ في جعلِ عائشةَ تشعرُ بكلِّ هذا الفراغِ، بعد محنة خمسة وعشرين عاماً، طَحَن عائشةَ كحجرٍ ساحقٍ.

لو كانَ بجانبها دورمش الآن لم تكن لتتحول إلى دمعةٍ

جافةٍ، وكانت تَقولُ معيدةً بدورمش إلى البيت، بعد كل هذا الألم ورغم تركه لها؛ أنه بطل المنزل.

لقد مُزّق داخل دورمش، ونَفِذ كل ما كانَ قدْ كسبه بيديه بسبب اندفاعه، ولكن ما قدْ ذهب لم يكن فقط المال، بل كانَ العمر، والآمال المضيئة في حياته.

❁ ❁ ❁

في تلكَ اللَّيلة بقيت عائشة إلى الصباح جالسةً على سريرِ دورمش، كامل لم يأتِ إلى البيتِ بعدُ، وبعدَ آخرِ رشفةِ ألمٍ؛ نظر دورمش إلى عيني عائشةَ، عندَ الوداعِ أُغلقتِ العينُ بحزنٍ، واقتُلعتْ بعضُ النبضاتِ من قلبِ عائشةَ وذهبتْ.

الأملُ الَّذي كانَ يغذِّيهِ ويكبِّرهُ لخمسة وعشرين عاماً وقعَ كجبلٍ عندَ أطرافِ قدمَيها، رغمَ غيابِ دورمش ورغمَ تركِه لها مازالتْ تسكبُ الدموعَ لأجلهِ، وكأنَّ كلَّ شيءٍ في حياتها قدِ اصفرَّ وذبلَ.

وأيضاً كامل لم يكنْ فيه خيرٌ لها، لقدْ نفذتْ كلُّ

آمالِها في الحياةِ. نظرتْ مرَّةً أخرى إلى دورمش، كانتْ شفاهُه تتحرَّكُ.

قَالَت:

ـ يا سندَ بيتي، لو جلَسْنا على طرفِ العدمِ واكتَفينا بالعدمِ، لما كنَّا قدْ عِشنا حياةَ الفقدانِ الآنَ.

كأنَّما أُطلقَ بالسلاحِ على قلبِ عائشةَ، وكأنَّه قدْ دخلَ مثقاب داخلِ جسدها وهيَ تقفُ أمامَ جسدِ دورمش الَّذي لا يتحرَّكُ.

عندَ نزولِ الشفقِ حلَّ الصمت للحظةٍ؛ الألمُ الَّذي عاشتهُ عائشةُ لسنواتٍ قدْ ذهبَ، وصوتُ الحزنِ صدحَ في الأجواءِ كصوتِ صباحِ الشَّمسِ في سهولِ البحيرةِ.

بَعدَ ذَلكَ مدتْ سجادةَ صلاتِها بالقربِ من دورمش وأخذتْ تدعي له بحبٍّ يجري بداخلِها، ثمَّ قَالَت لنفسها: «كلُّ هذا كانَ مُقدَّراً يا عائشةُ... الحياةُ امتحانٌ».

الرَّجُلُ الَّذي وَجَدَ لَيْلَى

فتحَ الرَّجلُ دليلَ الهاتفِ، كانَ سيتَّصلُ بليلَى

110 ليلى

112 ليلى

155 ليلى

كانَ الدليلُ مليئاً حتَّى آخره بأرقامِ ليلى. كلُّ الأرقامِ كانتْ لليلى. مدَّ يدَيهِ إلى المفاتيحِ ثمَّ تراجعَ فجأةً.

عندَما خرجتُ من البابِ جاءَ وجهي بوجهِ الرَّجلِ فألقيتُ السلامَ علَيه، كانَ هُناكَ جوابٌ واحدٌ سيريحني، قَالَ:

ـ وعليكمُ السلامُ ليلى.

ضحكَ الذينَ سمعوا ذلكَ، كانوا يقولون عنه «مجنون ليلى». قَالَ أحدهم:

ـ المسكينُ جُنَّ عندَما لم يجدْ ليلى.

بينَما قَالَ آخرُ:

ـ يا جماعة! هل هُناكَ أحدٌ يعرفُ ليلى هَذهِ؟

نظرتُ طويلاً إلى الرَّجلِ، ولأنه صاحبُ دينٍ فكَّرتُ قائلاً:

ـ لو أنهُ يلجأُ إلى المَولى، فاللهُ أعلمُ ما حالُه الآنَ، مع العلم أنَّ بينَ المولى وليلَى هُناكَ حرفينِ مشتركينِ، وما أهميةُ الحرفِ؟!

بَعدَ ذَلكَ غضبتُ من نفسي، إنَّني أخونُ الرَّجلَ! فهوَ في النهايةِ قدْ عشقَ ليلى؛ آه على حالكَ! ماذا يجبُ أن نقولَ عنه؟! إنكَ تعرفُ المولى ولكنكَ ماذا تعرفُ عنه، اسألْ نفسَكَ جيداً حتَّى لا تقولَ بَعدَ ذَلكَ أنكَ خنتَ.

❁ ❁ ❁

في ذاكَ المساءِ تقابلتُ مع نفسِ الرَّجلِ، قلت:

ـ خيراً؟ إلى أينَ تذهبُ هكذا؟

ـ حللتُها قليلاً مع لَيلى.

قلتُ متفاجئاً:

ـ وكيفَ حدثَ ذلك؟

أخذتُ أشاهدُ الأمواجَ الَّتي تضربُ الساحلَ، ثمَّ شعرتُ برحمةِ المطرِ من السماءِ، وبعدَها لمعَ البرقُ فشعرتُ بالدفءِ، ثمَّ فكرتُ كمْ هو جميلٌ الكلامُ الَّذي قلتُه من دونِ فهمِ الرَّجلِ، لقدْ فهمتُ ذلكَ من نظراتِه.

ـ تعالَ إلى هنا. سأطلبُ لكَ فنجاناً من الشاي يُعيدُ لكَ حيويتَكَ.

ـ شكراً ليلى.

قلتُ له:

ـ ماذا لديكَ اليوم؟

ـ يجبُ أنْ أذهبَ إلى المنزلِ، لديَّ موعدٌ مع ليلى.

❁ ❁ ❁

وُجدَ الرَّجلُ ذلكَ الصباحِ ميتاً في بيتهِ، كلُّ النَّاسِ ركضوا بحزنٍ إلى الجامعِ، وقفَ الإمامُ أمامَ تابوتِ الميتِ لطلبِ السماحِ لهُ، ثمَّ قَالَ:

ـ يا جَماعة! كيفَ يمكنكمُ التعريف عنِ المرحومِ؟

قَالَ الجميع:

ـ لقدْ كنَّا نعرفُه جيداً.

ثمَّ خرجَ أحدُهمْ وقَالَ:

ـ كُنَّا نعرفُه جيداً، ولكنْ لم نعرفْ كيفَ ماتَ.

ثمَّ سألَ الإمامُ:

ـ هلْ يوجدُ أحدٌ هنا يعرفُ ليلى؟

قَالَ أحدُهم:

ـ لقدْ كانَ المرحومُ شخصاً كتوماً.

قَالَ الإمامُ متضايقاً:

ـ آه لو عرفنا!.

للمرَّةِ الثانيةِ تمنَّى من النَّاس أن يسامحوهُ، ثمَّ نظرَ إليهم وقَالَ دونَ أنْ يُوضحَ شيئاً من كلامِه:

ـ فلننظرْ هل هو سامحنا؟

رفعَ الإمامُ الورقةَ الَّتي في يدهِ:

ـ إنَّها وصيةُ المرحومِ.

فانتبهَ الجميعُ.

ـ لقدْ وجدتْ هَذهِ الورقةُ بجانبهِ وأردتُ قراءتَها أمامَ الجميعِ في المصلَّى.

رغمَ معرفةِ الجميعِ أنَّ الرَّجلَ لم يكنْ يملكُ ثروةً أو

ميراثاً، لكن كانَ لديهم الفضولُ لمعرفةِ ما بداخلها؛ «كلُّ شخصٍ بحثَ عن ليلى في حياتي، فلمْ تكنْ تخرجُ كلمةٌ من فَمي سوى اسْمها، في حينِ لم أكنْ أتكلَّمُ عن أحدٍ غيرِ المولى».

الرَّجُلُ الَّذي سَحَبَتْهُ الآمَالُ

«أنا موجودٌ وعالمي ينبضُ بداخلي أيضاً».
يونس إيمره

في مكانِ وقوعهِ فتحَ الرَّجلُ عينيهِ، في منتصفِ اللَّيلِ، يسمعُ أصواتَ عواءِ الذئابِ الَّتي كانتْ داخل وادٍ ضيقٍ يمرُّ به نهرٌ، كانَ الهواءُ بارداً، كما أنَّ ضوءَ القمرِ الساطعَ من بينِ الغيومِ يُضيءُ الأطرافَ، وهواءُ الشتاءِ القارسُ كالنهرِ الَّذي يصبُّ في الوادي.

قَالَ الرَّجلُ:

ـ يجبُ أنْ أصلَ إلى البيتِ.

انغلقَ على وحدتهِ، ثمَّ قَالَ:

ـ حتَّى لو مِتُّ فلنْ يعرفَ أحدٌ.

وفجأةً لاحظَ وجودَ رجلٍ أمامَه، وكأنه كانَ يُخفي سراً في وجهِهِ، لم يتأثرْ وكأنَّ هُناكَ شيئاً في سماهُ، الأملُ

الَّذي بداخلهِ تجدَّدَ ثمَّ ذهبَ، لاحظَ ابتعادَ الرَّجلِ مقابله، فسحبَ نفَسَه سريعاً كالمغناطيسِ.

لقدْ كانَ يبتعدُ كظلٍّ أملٍ. ذهبَ خلفَ الرَّجلِ ولم يصدرْ أيَّ صوتٍ، كانَ الرَّجلُ في الأمامِ يمشي باتِّجاهِ شيءٍ ما يخيفُه.

شجاعةُ الرَّجلِ أصبحتْ شجاعتَه، فلقدْ شبَّهَ الرَّجلَ بنفسِه، وكأنَّه كانَ داخلَ الرَّجلِ أملاً جارياً.

تفاجأتُ كيفَ وجدَ طريقاً له بعدَ كلِّ هَذهِ الآلامِ الَّتي يعيشُها، على طولِ الوادي لم ينظرِ الرَّجلُ، فرِحَ من داخلِه عندَما رأى منزلَه، فكَّرَ بنفسِه: «لو أنَّني أكفُّ عن متابعةِ الرَّجلِ».

❁ ❁ ❁

عندَما توجَّهَ إلى بيتهِ تفاجأَ، لقدْ دخلَ إلى بيتهِ، وضاعَ الرَّجلُ من خلفهِ، ضاعَ داخلَ منزلِه، تجوَّلَ في الغرفِ، ولم يكنْ هُناكَ أحدٌ غيرَه، مرَّ بجانبِ المرآةِ ونظرَ إليها فوجدَ الشخصَ الَّذي كانَ يتبعُه!

صَوْتُ الحَقِيقَةِ

في غرفةٍ نافذتُها مطلَّةٌ على فناءِ الجامعِ؛ كانَ هُناكَ رائحةُ عفونةٍ ظاهرةٌ لعدمِ تعرُّضِها للشمسِ، أغلقَ الرَّجلُ النافذةَ إلى نصفِها وتمدَّدَ على فراشهِ وعليهِ غطاءٌ.

كانَ ينتقلُ بينَ محطَّاتِ المذياعِ بلمسةٍ خفيفةٍ عليه، كانَ يبحثُ عن نغمةٍ تُسعدُ قلبَه، في الحقيقةِ كانَ يبحثُ عن صوتٍ حيٍّ وسط هذا الصَّمتِ.

كانتِ الحياةُ تجري في هذا الحيِّ القديمِ ذي الجدرانِ العاليةِ والشوارعِ الضيقةِ. رائحةُ الرطوبةِ القادمةُ من الشوارعِ الضيقةِ، وأصواتُ الأقدامِ، والعصافيرُ الَّتي تحومُ فوقَ أشجارِ فناءِ الجامعِ، وأصواتُ البائعينَ المتجوِّلينَ الَّتي لا تُفهمُ؛ كانَ كلُّ ذلكَ صوتَ الحياةِ.

❁ ❁ ❁

كنتُ أُشبِّهُ نفسي بهذا الحيِّ القديمِ بوحدتِه وصمتِه

وذبولِه. في الحقيقةِ يوجدُ للأشخاصِ الذينَ يهربون من ذبذبةِ الحياةِ، شفاءٌ لروحهم وصفاءٌ في مكانِ عيشِهم؛ يوجدُ في الصوتِ الذي يبحثون عنه.

وهو يقلِّبُ بينَ المحطَّاتِ لم يجدْ إلى الآنَ أيَّ شيءٍ يسعدُه، حتَّى ولو وجدَ هل سيكونُ هذا الصوتُ العلاجَ الَّذي يبحثُ عنه؟ كانَ قدْ قرأَ ذلكَ في كتابٍ؛ يسمعُ الإنسانَ صوتاً قبلَ أنْ تُخلقَ روحُه، يكونُ أجملَ ما قدْ يسمعُه الإنسانُ في حياتِه كلِّها، يتبعُ هذا الصوتُ ولكنَّهُ لا يجدُهُ.

❁ ❁ ❁

كانَ رجلاً وحيداً مقطوعاً من شجرةٍ، مريضاً وعاجزاً، ولكنَّ هذا الصوتَ؛ صوتُ الحقيقةِ، صوتُ الأملِ، صوتُ السعادةِ. بالتأكيدِ سيتعرفُ على هذا الصوتِ في يومٍ ما، وسيملأُ قلبُه بالنعيمِ؛ كانَ يؤمنُ بِذَلكَ.

نظرَ إلى منارةِ الجامعِ في مقابلِ الفناءِ؛ من يعلمُ كمْ منَ السنين قدْ مرتْ عليكِ أيتُّها المدينةُ؟ حتَّى إنكِ من أقدمِ المدنِ في الدنيا، ولكن كل شيءٍ كانَ قدْ بقيَ على حالهِ، رغمَ أنهمْ حاولوا تجديدَه أكثرَ من مرَّةٍ ولكنَّهُ مازالَ

على حالِه، ما الَّذي أبقاهُ على حالهِ؟!كان يتوجَّبُ عليه قمعُ أصواتِ الإعصارِ والفيضانِ الَّتي بداخلهِ.

استمرَّ بالتنقلِ بينَ محطاتِ المذياعِ، كانَت تنبعثُ منه أصواتٌ مختلفةٌ عن متحدثينَ باللغةِ العربيةِ والفارسيةِ والإنجليزيةِ، صوتُ الأوبرا المجنونُ، والحوادثُ الَّتي تواجهُ الشرطةَ، ولكنَّه لم يجدْ أيَّ صوتٍ منها يشبهُ النغمةَ الحلوةَ.

❁ ❁ ❁

كَانَ الوقتُ قدْ تعدَّى منتصفَ اللَّيلِ منذُ زمنٍ ولكنَّهُ لا يشعرُ بالنعاسِ، قامَ واتَّجهَ نحوَ فناءِ الجامعِ، من جدارِ فناءِ الجامعِ العالي لا يمكنُ رؤيةُ شيءٍ سِوى السماء.

كَانَتِ السماءُ مضيئةً، والقمرُ بدراً، كَانَ في الفناءِ إضاءةٌ ساحرةٌ، وبجوارِ النافورةِ الَّتي في الزاويةِ أكثرُ من تابوتٍ مصفوفينَ فوقَ بعضهمُ البعض. وكأنَّ جدارَ الفناءِ العالي يقفُ كحاجزٍ لنقاءِ جوِّ الجامعِ وروحانيتهِ بعيداً عن قذارةِ الخارجِ.

حياةُ الفناءِ، وتابوتُ الموتِ، وروحانيةُ الجامعِ، كلُّها

كَانَتْ تُذكِّرُ بالسماءِ الَّتي لا نهايةَ لها، نظرَ إلى السماءِ بحماسٍ لمدةٍ منَ الوقتِ علَّهُ يستطيعُ سماعَ صوتِ الأملِ، ويجدُ الدواءَ لصمتهِ، بَعدَ ذَلكَ تجوَّلَ في أطرافِ الفناءِ الأربعةِ، وعادَ بعدَها من جديدٍ إلى غرفتهِ.

استلقَى على فراشهِ، وقعتْ عيناهُ على أشكالِ بقعِ الرطوبةِ في الجدارِ، لكلٍّ بقعةٍ أعطاها اسماً، حتَّى إنهُ كَانَ يتحدثُ معها، ولكنَّها لم تكنْ لتخففَ عنه لا وحدتهُ ولا ألمهُ، ولم يجدِ الصوتَ الَّذي يبحثُ عنه من خلالِها. نظرَ إليها وقَالَ:

ـ ماذا سيحصلُ بي، يا ربِّ أرشدني إلى الحقيقةِ.

نظرَ إلى السماءِ من نافذتِه، وكَانَ الفجرُ على وشكِ أنْ يولدَ، قَالَ متمعِّناً:

ـ هُناكَ قرارٌ يأتي من السماءِ.

بعدَ قليلٍ تردَّدَ صوتٌ مقدسٌ في السماءِ: «اللهُ أكبر.. اللهُ أكبر!» ربَّما كَانَ السِّرُ الَّذي يبحثُ عنه خلفَ هذا الصوتِ!

الشَّوْكُ الجَافُّ

عندَ مرورِ صوتِ طنينٍ عميقٍ للرياحِ بينَ أشجارِ الصَّنوبرِ؛ يملأُ القلبَ بإحساسٍ غريبٍ، تهاجمُ الأشواكُ الشائكةُ الجافةُ في الأطرافِ أوراقَ الشجرِ المصفرَّةَ.

الشَّمسُ مائلةٌ باتِّجاهِ تشكوروفا، وكَانَ الوقتُ قريباً من تجاوزِ العصرِ. جبلُ النورِ؛ وكأنَّ الحرارةَ كَانَتْ تأتي من دفئهِ، وبسببِ عُطلِ باصِنا صعدْنا إلى جبلِ النورِ تسلُّقاً، كَانَ هُناكَ قلقٌ في نظراتِ السائقِ، وكَانَ مساعدُهُ عاجزاً عنْ فعلِ أيِّ شيءٍ أيضاً. قَالَ:

ـ لو كُنَّا نعرفُ أنَّ هذا سيحصلُ معنا كُنا قُمنا بصيانتهِ في مرسين.

قَالَ السائقُ:

ـ اخفضْ صوتَكَ، هل هذا وقتُهُ الآنَ؟

كَانَ لا يريدُ لأحدٍ من الرُّكابِ أنْ يَعلمَ أنَّ ما حصلَ

كَانَ من إهمالهِ، وكانوا يظنونَ أنهُ لم يسمعهُمْ أحدٌ، ولكنني كنتُ خلفهمْ. نادَى السائقُ على الركابِ:

ـ أعزَّائي المسافرينَ، نرجو منكمْ أخذَ أشيائكمُ الثمينةِ من الباصِ والذهابَ إلى فيفزي باشا، فقدْ تأخذُ الصيانةُ وقتاً طويلاً.

بدأَ المسافرونَ بالتأفُّفِ، وكلُّ شخصٍ كَانَ يقولُ:

ـ يا ليتَنا لم نأتِ بهَذهِ الرحلةِ.

بسببِ التعديلاتِ التي كَانَتْ تجرى في الطَّريقِ ذهبَ السائقُ من طريقٍ قديمٍ وضربَ السَّيارةَ.

قَالَ بعضُ الركابِ له:

ـ لقدْ تملَّكَنا الحنينُ لهذا الطَّريقِ، مرتْ سنون ولم نرهُ والمناظرُ هُناكَ جميلةٌ. دَعنا نذهبُ هُناكَ.

لقدْ أثَّرَ ذلكَ به وجعلَهُ يُغيِّرُ طريقَهُ.

❁ ❁ ❁

في العادةِ يقومُ المسافرونَ بالعملِ في مرسين وجمعِ النقودِ من فترةِ الشبابِ، طفولتُنا كَانَتْ في المدينةِ.

الركابُ الذينَ أخذوا أشياءَهم الثمينةَ انقسموا إلى

مجموعاتٍ من ثلاثةٍ إلى خمسةِ أشخاصٍ، وضعتُ حقيبتي على ظهري وانضممتُ إليهمْ، ومع صعودنا إلى القمةِ كَانَتْ تزيدُ المسافةُ بُعداً بينَ المجموعاتِ، منهم مَن أصبحَ في المقدمةِ واختفَى عنِ الأنظارِ، ومنهم مازالَ في الخلفِ يصعدُ بصعوبةٍ.

كنتُ قدْ تعبتُ، ورغمَ أنني قدْ تعوَّدتُ على وجوههم فكنتُ أشعرُ بنفسي غريباً بينَهم، كنتُ ما زلتُ متأثراً بكتابٍ قرأتُه قبل أيامٍ.

كنتُ أفكرُ بقدرةِ الله على خلقهِ لكلِّ شيءٍ في مكانهِ وداخل نظامٍ خاصٍّ بهِ.

كَانَ هُناكَ ضبابٌ أبيضُ فوقَ تشوكوروفا الَّتي أصبحتْ خلفنَا يحجبُ رؤيتَنا لها.

❁ ❁ ❁

تذكرتُ بعضَ الأشخاصِ عندَ رؤيةِ منظرِ الضبابِ هذا، فلمْ أعدْ ألمحُ أحداً خلفي، تسارعتْ خطواتي بتوترٍ وخوفٍ وكنتُ أشعرُ بالعطشِ أيضاً، كنتُ أمشي من جهةٍ،

ومن جهةٍ أخرى أتجوَّلُ في الأطرافِ على أملِ أن أجدَ قليلاً من الماءِ.

على يسارِ التلةِ كَانَ هُناكَ وادٍ ضيقٌ فيه أشجارٌ طويلةٌ، يجبُ أنْ يَكونَ هنا ماءٌ، فالأشجارُ لا تبقَى دونَ ماءٍ.

توجهتُ إلى الوادي، وعندَما رأيتُ الماءَ مشيتُ بسرعةٍ إلى المياهِ الَّتي تشبهُ الطينَ أكثرَ، وعندَما لاحظتُ وجودَ شخصينِ عندَ الماءِ توقفتُ.

بعيداً عن الطَّريقِ، كَانَ مكَانَاً مهجوراً، وكَانَ كلاهُما ظهرُه لي، نحيفا البنيةِ، حنطيا اللَّونِ، وواحدٌ منهُما يتوضأُ في المياهِ الجاريةِ، اتجهتُ نحوَهما وأنا أقولُ: «لا يأتي ضررٌ من رجلٍ يتوضأُ».

أحدُهما كَانَ أسمرَ اللَّونِ يراقبُ الأطرافَ، توقفتُ واختبأتُ خلفَ شجرةِ صنوبرٍ، عندَما انتهَى أحدُهما من الوضوءِ وقفَ ليصلِّيَ، كَانَتْ تصرُّفاتُهما مريبةً، وكأنهما يخططانِ لشيءٍ ما.

قامَ على قدميهِ فجأةً ورمَى بسيجارتهِ على الأرضِ، وكأنهما يبحثانِ عن فريسةٍ؛ كالصيادِ الَّذي يراقبُ الصقرَ

في السماءِ، وبحركةٍ مفاجئةٍ قامَ بالهجومِ على الشخصِ الَّذي كَانَ يصلي.

بعدَ نزاعٍ قصيرٍ أَطرحَهُ أرضاً على ظهرهِ وجلسَ فوقهُ كمنْ يركبُ حصاناً، كَانَ الشابُّ الأسمرُ النحيفُ مندهشاً بما يمرُّ به، بدأَ يتجاوبُ معهُ ويهاجمُ، وعندَما رأى الشابُّ الأسمرُ أن خصمهُ بدأَ يدافعُ عن نفسِه أمسكَ بحجرٍ وبدأَ يضربُه.

لم يكنْ هُناكَ مجالٌ للدفاعِ، عندَما وجدهُ قد استسلمَ تركَ الحجرَ جانباً. كَانَ الحنطيُ يتألمُ، فقدْ جُرحَ رأسُه من ضرباتِ الحجرِ الَّتي تلقَّاها، كلُّ شيءٍ حصلَ بلحظةٍ وانتهَى.

❁ ❁ ❁

شُلّتْ أطرافي حينَها، فلمْ أكنْ أعلمُ ما سأفعلُه، كنتُ أريدُ أنْ أخرجَ وأتدخَّلَ ولكنني لم أجدِ الفرصةَ، كما أنَّ المداخلةَ في هكذا وضعٍ تعني الموتَ.

وبلحظةٍ تركَ منافسَهُ على الأرضِ وذهبَ، كنتُ أشعرُ بالحرجِ عندَ خروجي لمساعدةِ الرَّجلِ، كنتُ أخطو خطوةً

جديدةً باتجاهِ الشابِّ، كنتُ ضعيفاً، ولم أكنْ أتحملُ رؤيةَ جثةٍ، وأيضاً مع عدمِ فهمي لشيءٍ مما جرى.

فجأةً جاءَ الرَّجلُ الأسمرُ وأخذَ يبحثُ بجيبِ الجريحِ، بعدَها بلحظةٍ نظرَ إلى الشابِّ الَّذي تحتهُ بعينٍ مُحمرَّةٍ؛ كَانَ يخرجُ من فمه صوتٌ كسُمِّ الأفْعى:

ـ أَعطني نقودِي فوراً!

ـ لقدْ فهمتُ المشكلةَ الآنَ!

ـ خليلُ! هلْ أنتَ مدركٌ لما فعلتَهُ، لقد خُنتَني، في عالَمي لا يبقَى شيءٌ سراً!

ـ لا تُطلْ. عثمانُ! أعطني نقودِي!

ـ لنْ أعطيَكَ. هَذهِ نفقتي لسنةٍ، وأنتَ أيضاً عملتَ معي وكسبتَ النقودَ نفسَها، لو أنكَ عرفتَ قيمةَ نقودِكَ!

ـ لا تُطلْ. مهما فعلتَ سأجدُ النقودَ، لا تعذبْني!

كَانَ من الواضحِ أنَّهما يعرفانِ بعضَهما جيداً. كَانَ خليلٌ صديقاً له ثمَّ طعنَهُ بظهرِهِ.

كَانَ عثمانُ يدافعُ عن نفسهِ بنظرةٍ دهشةٍ مرسومةٍ على

وجههِ؛ فالصداقةُ الَّتي كَانَتْ بينَهما كَانَتْ مليئةً بالضحكاتِ المزيفةِ، وبالكلامِ السامِّ المعيبِ.

عندَما رأى عثمانَ يدافعُ عن نفسهِ عادَ ليضربَهُ، وهو يبحثُ عن نقودِه وجدَ جيباً سريّاً فنظرَ بنظرةِ خائنٍ.

خليلٌ الجالسُ في حضنِ عثمانَ، تحوَّلَ إلى بهيمةٍ، بعدَما أخذَ النقودَ بضحكةٍ خائنةٍ راحَ يلوِّحُ بها. قَالَ عثمانُ بآخرِ أملٍ له:

ـ خليلُ! لا تفعلْ، هَذهِ نقودُ نفقةِ طفلٍ لسنةٍ، فلنعتبرْ كلَّ ما حصلَ كَانَ مزاحاً وليذهبْ.

❁ ❁ ❁

ولكنَّ كلُّ ما حدثَ لم يكنْ أبداً مزاحاً بالنسبةِ لخليلٍ، كأنهُ قدْ مزَّقَ إنسانيتَهُ بسببِ بخلهِ الزائدِ. أخذَ حجراً من الأرضِ ونظرَ نظرةً خائنةً إلى عثمانَ:

ـ بعدَ كلِّ هذا هلْ تظنُّ أنني سأتركُكَ على قيدِ الحياةِ، كنتَ متقدماً عليَّ دائماً، حتَّى الفتاةِ الَّتي أحبُّها أخذتَها مني، عندَما نشرتَ خبرَ أنكَ ستخطبُها في القريةِ لم يعدْ لي حتَّى الجرأةُ أنْ أتكلمَ.

عثمانُ أصبحَ يفهمُ جيداً الآنَ سببَ كلِّ هذا الكرهِ، كَانَ يتخبَّطُ في روحهِ، نظرَ عثمانُ إلى الحجرِ الَّذي سيلتقطُهُ خليلٌ ونظرَ إلى عينيهِ وقَالَ له آخرَ كلماتهِ:

ـ لا تفعلْها يا خليلُ! لا تذنبْ، هل تظنُّ أنَّ الظلمَ الَّذي ستفعلُه سيبقَى سراً؟ يدُكَ وقدمُكَ ستشهدُ على ظلمكَ، حتَّى هَذهِ الأغصان الشَّائكة الجافَّة ستفضحُ ما فعلتَه، ولسانُكَ لن تستطيعَ أنْ تبقيَه بداخلكَ، سيأتي زمان ويُدلي بما حدثَ، اللهُ الَّذي يعلمُ كلَّ شيءٍ ويرى في يومِ الحشرِ. ألن يُظهرَ كلَّ أعمالكَ؟ اللهُ قديرٌ، فاعلمْ هذا يا خليلُ، من الواضحِ أنكَ خططتَ لكلِّ ذلكَ منذُ مدةٍ طويلةٍ، انظُرْ لذلكَ حقّاً.

اعتبرْ كلَّ ما حصلَ وكأنه ما كان، لا تفعلْ ذلكَ بي، لشهورٍ تقاسمْنا لقمةَ الخبزِ نفسها، ما أكلناهُ وما شربناهُ لم يكنْ مختلفاً، ورغمَ كلِّ هذا فلتكنْ نقودي لكَ، يكفي ألا تسيءَ إليَّ.

❁ ❁ ❁

رغمَ كلِّ ما قَالَه عثمانُ لم تؤثر كلَّماتُه أبداً على

خليلٍ، لقدْ وصلَ إلى طريقٍ لا عودةَ منهُ، مسكَ الحجرَ بقبضتينِ ورماهُ بكلِّ قوتهِ على رأسِ عثمانَ. الدهشةُ والألمُ كشمعةٍ باردةٍ كَانَتْ في تعابيرِ وجهِ عثمانَ الأخيرةِ.

لقد تجمَّد الدمُ في جسدِي تجاهَ ما رأيتُه، وكأنَّ في تلكَ اللحظةِ جبلَ النورِ بالكاملِ قدِ احتدَّ.

بكلِّ هذا الظلمِ قدَّمهُ الجبلُ شهيداً، هل كَانَ هُناكَ يا ترى من قبلُ شهيداً قُتلَ بوحشيةٍ؟!

وبدأتِ العصافيرُ الَّتي على الأغصانِ بالطيرانِ، وانقطعَ صوتُ الذبابِ وحفيفُ الأشجارِ، وأغصانُ الأشجارِ المائلةُ أصبحتْ قائمةً.

أخذتِ الرِّياحُ ترمي بنفَسٍ باردٍ بالأوراقِ الصَّفراءِ، وكَانَتِ الأغصانُ الشائكةُ الجافةُ في الأطرافِ كأنَّها مرثاةٌ؛ تتحركُ من طرفٍ إلى آخرَ.

لقد ماتَ عثمانُ، غابتِ الشَّمسُ عن جبلِ النورِ، وبقيَ القليلُ من الضوءِ فقطْ في قمةِ الجبلِ ساطعاً على أوراقِ الصَّنوبرِ، تنسحبُ السماءُ بخفةٍ.

كَانَ خليلٌ مرتبكاً لا يعرفُ كيف سيخفي جثةَ عثمانَ،

بدأتُ الدعاءَ لكي لا يراني، أخذَ يسحبُ الجثةَ إلى مكانٍ منعزلٍ حتَّى لا تراها القوافلُ القادمةُ من الخلفِ، أخفَى الجثةَ واضعاً فوقَ نصفِها رملاً ونصفها الآخرِ طيناً ليِّناً. وذهبَ سريعاً إلى الطَّريقِ، ذهبَ بخفةٍ إلى التلةِ مبتعداً عن هنا.

وعندَ اقترابِ المساءِ خرجتُ ببطءٍ وبخطواتٍ هادئةٍ إلى الطَّريقِ.

عندَ وُصولي إلى محطةِ القطارِ كَانَ الكلُّ موجوداً عدا شخص واحد، كَانَ خليلٌ يمزحُ مع الجميعِ وكأنَّهُ لم يفعلْ شيئاً.

خفتُ من جديدٍ عندَما رأيتُ برودتَه، كَانَ جميعُ الركابِ قدْ قرَّروا الذهابَ بالقطارِ، وكَانَ الجميعُ يتحركُ عندَ دخولِه إلى المحطةِ.

فجأةً جاءَ صوتٌ من وسطِ الازدحامِ:

ـ يا أصدقاءُ، هل رأى أحدُكمْ عثمانَ؟ إنهُ ليسَ هنا.

نظرتُ فوراً إلى خليلٍ، كَانَ وجهُهُ أبيضَ شاحباً.

قَالَ أحدُهم:

ـ آخرُ مرَّة كَانَ مع خليلٍ في الخلفِ.

ـ لقدْ رأى أجنبيّاً وتوقفَ معهُ، سألتُهُ هل تعرفُه من قبلُ؟ ولكنَّهُ قَالَ: أنتَ اذهبْ، وسآتي أنا لاحقاً.

❁ ❁ ❁

اتَّجهَ الجميعُ إلى القطارِ عندَ سماعِ الصَّفارةِ، كَانَ عثمانُ قدْ خرجَ من العقولِ، وصلْنا إلى المدينةِ عندَ المساءِ، وكنتُ ما زلتُ أحملُ في داخلي آثارَ الحادثِ الَّذي عشتُهُ قبلَ سنتين.

لقدْ أعطاني اللهُ فرصةً للعيشِ من جديدٍ، وقد كنتُ قدْ وعدتُهُ أن أكونَ مطيعاً له، ولكنني شهيدٌ على جريمةٍ ولا أستطيعُ فعلَ شيءٍ تجاهَها.

في يومٍ من الأيامِ رأيتُ خليلاً في سوقِ المدينةِ، دخلَ إلى القهوةِ متمايلاً كشخصٍ مغرورٍ ويديهِ خلفهُ، وكأنَّ خليلاً المغناطيسُ وأنا كنتُ الحديدَ.

توجهتُ فوراً من خلفهِ إلى القهوةِ، وعندَما كَانَ يُسلِّمُ عليَّ بعضُ من أعرفُهم كَانَ البعضُ الآخرُ يُسلِّمُ على خليلٍ، سألوهُ بفضولٍ:

ـ خليلُ! هل مازال عثمانُ غائباً، كَانَ دائماً يرافقُكَ، ماذا يمكنُ أنْ يَكونَ قدْ حصلَ له؟

ـ كم مرَّة سأقولُها، لقدِ انفصلَ عني في الطَّريقِ، لم أحفظْ شكلَ الرَّجلِ الَّذي كَانَ معه عندَما قَالَ لي «أنتَ اذهبْ» تركتُهم وذهبتُ. برأيي هذا الرَّجلُ قدْ فعلَ شيئاً بعثمانَ، لأنَّ عثمانَ كَانَ يحملُ الكثيرَ من النقودِ يومَها.

❁ ❁ ❁

خليلٌ كَانَ يلعبُ دورَهُ جيداً كممثلٍ محترفٍ، لو وقفتُ أمامَ كلِّ هؤلاءِ النَّاسِ وقلتُ:

ـ هذا الرَّجلُ يكذبُ، هو منْ قتلَ عثمانَ.

من كَانَ سيصدِّقُني، ماذا يمكنُني أن أفعلَ أمامَ ممثلٍ محترفٍ مثلِه؟!

بعدَ أسبوعٍ جاءتْ جنازةُ عثمانَ إلى المدينةِ، كَانَتِ الحيواناتُ المفترسةُ قدْ أخرجتْ جسدَهُ من تحت الترابِ.

لقدْ تعرَّفوا على جثتهِ من عظامِه، كَانَ الكلُّ في جنازتهِ، خليلٌ أيضاً كَانَ هُناكَ، وكأنَّ في وجههِ حزناً، من

جديدٍ يلعبُ دورهُ باحترافيةٍ، كانتْ زوجةُ عثمانَ وأمهُ تجهشان بالبكاءِ.

كَانَ الألمُ الَّذي عشتُه في تلكَ اللحظةِ لا يوصفُ، وعندَما سمعتُ أنَّ له ولداً زادَ وجعي أكثرَ، زوجةُ عثمانَ مريمُ كَانَتْ في بدايةِ الأربعين؛ أصبحتْ أرملةً في أجملِ سنين حياتِها.

أنْ تصبحَ أرملاً في مدينةٍ صغيرةٍ كهَذهِ يعني الموتَ، ليسَ فقطْ كبارُ السنِّ من يحتاجون إلى الرِّعايةِ، الأراملُ أيضاً.

❁ ❁ ❁

بعدَ مدةٍ من الزمنِ انتشرَ في المدينةِ خبرُ طلبِ خليلٍ يدَ عائشةَ، وعندَ سماعي هذا الخبرَ تجمدَ الدمُ في عروقي، لم أعدْ أستطيعُ النومَ جيداً، مهما خططتُ لم يكنْ هُناكَ مخرجٌ، عندَ شرحي لما حدثَ لخليلٍ من المحتملِ جداً أنْ يَقتلَني أنا أيضاً.

من يعلمُ بأيِّ لغاتٍ قدْ تحدَّثَ مع مريمَ حتَّى أقنعَها بالزواجِ منه! كنتُ عاجزاً، ولم أستطعْ منعَ هذا الزواجِ.

كانا قدْ تزوَّجا بسرعةٍ دونَ أن يُقيما عرساً؛ على حسبِ العاداتِ في مدينةِ زيرا فلا يُقامُ عرسٌ لأرملةٍ.

كنتُ دائماً أراهُ وهو يمشي في الشارعِ، لم يكنْ عقلي يتقبَّلُ هذا الموضوعَ، كنتُ أدعي فقطْ وأتوسَّل إلى اللهِ:

ـ يا ربِّ أظهرْ للناسِ الحقيقةَ.

كَانَ فكري مشوشاً لدرجةِ أنني لم أفكرْ أنْ أطلبَ المساعدةَ من أحدٍ، في منطقةٍ مثل زيرا من سيصدقُ مثل هكذا حكاية؟!

❁ ❁ ❁

كَانَ واضحاً على خليلٍ من حالهِ أنهُ يُخفي سراً بداخلهِ، لم يكنْ ضميرُه مرتاحاً. لم أستطعْ في تلكَ اللَّيلةِ النومَ أبداً، استيقظتُ ليلاً وصلَّيتُ، وبقيتُ للصباحِ أطلبُ من اللهِ أن يخلِّصني من عذابِ الضميرِ ويُظهرَ لي طريقاً يخرجني مما أنا فيه.

رأيتُ خليلاً مجدداً هذا الصباح، عندَما مررتُ من أمام منزلهِ، وكأنهُ عزرائيلُ بوجهِ إنسانٍ.

كَانَ يعيشُ اللحظاتِ الصيفيةَ الأخيرةَ، من وقتٍ لآخرَ

كَانَ يدافعُ عن نفسهِ تجاهَ الأخبارِ الَّتي تجلبُها رياحُ الخريفِ، والأعشابُ اليابسةُ على التلالِ.

حلَّ الظلامُ وأذانُ العشاءِ على وشكِ أنْ يَبدأَ. مرَّ العساكرُ من أمامِ منزلِنا وتوجَّهوا إلى الأعلى، في آخرِ فترةٍ كَانَ دائماً بداخلي إحساسٌ أنَّ هُناكَ شيئاً سيحدثُ.

بدأتُ أجري فوراً باتِّجاههم، لقد توقَّفوا عندَ منزلِ خليلٍ، بعدَ قليلٍ خرجوا وبرفقتهم خليل وقدْ ألقوا القبضَ عليه.

كَانَ يبدو عليه أنهُ لا يفهمُ ما يجري، وكَانَتْ مريمُ تُتمْتِمُ من خلفهِ.

في تلكَ اللحظةِ دخلَ الفرحُ إلى داخِلي، وبلحظةٍ بدأَ الكلُّ في المدينةِ يتحدَّثُ عمَّا حدثَ؛ كَانَ خليلٌ ومريمُ يتناولانِ طعامَ العَشاءِ، وبينَما كانا يأكلان طعامهما بفرحٍ وقعَ غصنٌ شائكٌ على الفرنِ ثمَّ طارَ إلى فوقِ طاولة الطعامِ، عندَها تذكرَ خليلٌ ما قَالَه عثمانُ له:

«لا تفعلْ يا خليلُ، كلُّ ما حولَنا حتَّى الأغصان الشائكة الجافَّة ستكشفُ ما فعلتَهُ يوماً ما»، رُسمتِ

ابتسامةٌ خائنةٌ على وجهِ خليلٍ وكأنهُ لا يشعرُ أبداً بندمٍ حيالَ ما فعلَهُ، وعندَما لاحظتْ مريمُ هَذهِ الابتسامةَ الغريبةَ على وجهِ خليلٍ سألتْه:

ـ لماذا تضحكُ هَكذا؟

استمرَّ خليلٌ بالكذبِ وقَالَ:

ـ لا يوجدُ شيءٌ.

أرادتْ مريمُ معرفةَ سببِ ابتسامتهِ، ولكن عندَما تهرَّبَ خليلٌ من إعطاءِ الإجابةِ لم تردْ أنْ تضغطَ عليه.

❁ ❁ ❁

حِسُّ المرأةِ كَانَ يقولُ لها أنَّ هُناكَ حكايةً غريبةً تحتَ هَذهِ الضحكةِ، فكَّر خليلٌ أنهُ لنْ يستطيعَ الخلاصَ من أسئلتها، وإصرارِها وبدا أكثرَ ليونةً لإخبارِها ما حدثَ.

«على أيِّ حالٍ سيصبحُ لنا طفلٌ يستحيلُ أن تفكِّرَ بالشكايةِ عليَّ، وإذا دخلتُ السجنَ ستعودُ هي أرملةً وعاجزةً، لذلكَ لنْ تجرؤَ على المخاطرةِ بكلِّ ذلكَ»؛ هكذا حدَّثَ نفسَهُ.

عندَها قامَ خليلٌ بإخبارِها عمَّا حدثَ بالتفصيلِ.

لم تستطعْ إخفاءَ صدمتِها، ولكنَّها تعاملتْ ببرودةٍ، وبحجةِ أنها ستذهبُ إلى الجيرانِ.

خرجتْ من المنزلِ وتوجهتْ إلى الشرطةِ وأخبرتْهم بالتفصيلِ ما حدثَ، بعدَها بيومٍ كَانَ أقرباءُ خليلٍ يُخبرون كلَّ من في المدينةِ عن افتراءِ مريمَ وكذبِها.

أنكرَ خليلٌ في السجنِ كلَّ ما قَالَتهُ مريمُ، ولأنهُ لا يوجدُ شاهدٌ عما حدثَ، في زمنٍ قصيرٍ كَانَ الكلُّ يتحدثُ عن براءةِ خليلٍ.

هنا كَانَ يجب عليَّ التحركُ، فذهبتُ فوراً إلى الشرطةِ لأريحَ ضميري وأفْشي السرَّ الذي كان يجثم على صدري.

تَوَجَّهتِ الشُّرطةُ إلى القَبرِ، ووجدوا في مكانِ الجريمةِ شَعراً عائداً إلى خليلٍ، كَانَ قدْ دعمَ التحقيقَ.

الآنَ روحي وضميري مرتاحانِ، وخليلٌ حُكمَ عليه بالجِنايةِ.

المحتوى

شَجَرةُ الصَّنَوبرِ وَأَقْلامُ التَّلْوِينِ 5
كُنْ مَنْ تَكُونُ! 27
رِحْلَةُ الغُرْبَةِ 31
الثُّعبانُ وموسمُ الحصادِ 51
الوَحِيدُ غَرِيبٌ ومَرِيضٌ! 67
فِعْلُ خَيرٍ واحِدٌ يُنْقِذُ أَلفَ روحٍ 77
عِبْرَةُ المَوْتِ 89
أَخي الكَبِيرُ 95
المُنْدَسُّ 101
حَالاتُ العُمرِ 127
سَامحْ عَقْلَكَ 135
جدِّيَ العُثْمانِيُّ والوُرُودُ 137
الدُّخانُ 145
الحَيَاةُ المَفْقُودَةُ والآمَالُ الَّتي لا تَنْتَهي 151

الرَّجُلُ الَّذي وَجَدَ لَيْلَى 157
الرَّجُلُ الَّذي سَحَبَتْهُ الآمَالُ 163
صَوْتُ الحَقِيقةِ 165
الشَّوْكُ الجَافُّ 169
المحتوى 187